الدكتور عبدالله باشراحيل

في ديوانه قرابين الوداع

"إضاءات جمالية في الشعر السعودي"

عنوان الكتـــاب: الدكتور عبدالله باشراحيل في ديوانه قرابين الوداع
اســـم المـــؤلـف: نعيم عبد مهلهل
المـــــوضـــــوع: دراسة جمالية
عـدد الصفحات: 202
الـقيـــــــاس: 14.5 * 21.5 سم
الطبعـة الأولى: 2024م - 1446هـ
ISBN: 978-9933-38-164-2

© جميع الحقوق محفوظة لدار نينوى
Copyright ninawa

دار نينوى للدراسات والنشر والتوزيع

سورية ـ دمشق ـ ص ب 4650
تلفاكـــس: 2314511 11 963+
هاتـــــــف: 2326985 11 963+

E-mail: info@ninawa.org
ninawa@scs-net.org
www.ninawa.org
دار نينوى للدراسات والنشر والتوزيع
Ayman ghazaly

العمليات الفنية:
التدقيق والطباعة - القسم الفني: دار نينوى
تصميم الغلاف والتنسيق الداخلي: فلاح العيساوي

لا يجوز نقل أو اقتباس، أو ترجمة، أي جزء من هذا الكتاب، أي وسيلة كانت من دون إذن خطي مسبق من الناشر.

نعيم عبد مهلهل

الدكتور عبدالله باشراحيل
في ديوانه قرابين الوداع

"إضاءات جمالية في الشعر السعودي"

دراسة جمالية/ الحلقة الثانية

2024

الفصل الأول

قرابين الوداع

(أنموذج الحياة ومحطاتها في عالم عبدالله باشراحيل)

وَلَسْـــتُ مُعَـاتِـبَ الـدُّنْيَـا وَلَسْـــتُ
كَـمَـنْ لَا يَـعْـرِفُ الأَقْـدَارَ لَسْـــتُ
وَكَيْفَ يُعَـاتِـبُ الـمَـخْـلُـوقَ خَـلْقٌ
وَفَـوْقَ الْـخَـلْـقِ خَـالِـقُـهُـمْ يَـبُـتُّ

ص 400/ ديوان قرابين الوداع/ عبدالله باشراحيل

1

في فعل روحي جميل تقتدر عليه موهبة الشـعر ولغته، ليضـعنا الدكتور الشـاعر (عبدالله باشـراحيل) أمام لغته وفلسـفته ونحن نرصـد هاجس الحياة والتفكير بها بين عشرات النصوص في ديوانه الجديد (قرابين الوداع).

فالحياة لديه رؤية وتجربة يعرف أقدارها جيدًا، ويتعامل معها بضوابط روحيَّة وعمليَّة وتربويَّة تعوَّدَ عليها مع نشأته البَيتيَّة والثقافيَّة والمهنيَّة، لكنه في تقدُّم مرحلة النضـوج واكتمـال التجربـة، النص أعلاه يُرينـا أن في المكـامن كوامن، والدنيا هي مَكمَن كل الرؤى التي عاشـها وصـنع منها حياته.

حوار فلسـفي مدرك لما يُعاش وقد يُعاش بقدره المكتوب والذي حاول باشـرحيل أن يلمح إليه دومًا، بأن الحياة لتعيشـها بهنائها عليك أن تقرأها جيدًا وتحاورها جيدًا.

وكأي مؤمن ومقتدر من حرفة إلهام الروح لديه تراه يركن بقدرية تلك الحياة إلى الخالق، فتشـعر أنه يفكر بكونية العالم وتغيُّراته، وليبثها تلك الهالة العظيمة في صنع المقدور والمقدر بحكمة السماء وما تُقدِّره:

وَكَيْفَ يُعَاتِبُ الْمَخْلُوقَ خلقٌ

وَفَوْقَ الْخَلْقِ خَالِقُهُمْ يَبُتُّ

ومع هذا الابتهال المسكون بعاطفة البَوح في أمكنة الخيال ومتعة التفكير في الحياة حين تُستعاد أزمنتها، يسيطر الشاعر عبدالله باشراحيل على فكرة النظر إلى الزمن وقراءته وفق منظور الوعي وبلغة الشعر وليس بلغة المقالة أو الفلسفة، ذلك لأنه يؤمن تمامًا أن تأثير الشِّعر قوي وإيقاعاته تصنع أجراسًا لبهجة الكلمات ومعانيها، وأن الحياة ينبغي أن تُصاغ كما نراها في الحلم ونُحققها في الواقع، فكانت رسالته الشعرية مثل ذاك الذي يَرَى حتى يُرِيَنا، ويكتب حتى يسعدنا، وينشد حتى تتطور لذة السماع في أعماقنا، وكأنه يقرأ الحياة كعارف وعرَّاف، ويضع أقدارها في قوافي المهابة تعريفًا روحيًّا وقدريًّا سليمًا. لتفاجئك دهشة التفكير لدى باشراحيل في سياقات نص حياتي آخر، ولكنه برؤية فلسفية ناضجة وعميقة ومقروءة بشيئين، هما: اللغة حين تفكر، واللغة حين تكون تصويرًا جماليًّا مع حسٍّ عالٍ يسكن نبض قلبك الشاعر ويضعه أمامنا مقروءًا مثل لوحة تشكيلية، ولكنها لوحة ليست للتأمُّل فقط، بل للتفكير.

ففي قصـيدته (الحس السـديمي) ص 50 من الديوان ستقرأ وترى وتستنتج أن الحياة والتفكير بها قد نذهب فيه إلى أبعد خيال لنكتشـف حقيقة ضـائعة عنا. وربما صُـنْع الخيال عند الشـاعر عبدالله باشـراحيل هو صُـنْع للحظة حياتية نتحكم في مسـاراتها وأزمنتها عبر طاقة التعبير التي امتلكها، وأصبحت لديه سـديمًا يتحرك في كونٍ لا حدود لمُدُنه وأمكنته وقارَّاته، وكأن الحياة تُعاش فوق تِيهٍ من لذَّة التجارب والمبادرات واللقاءات، وتأسـيس قِيم مجتمعية تجعلك مقتنعًا تمامًا أنك تعيش هذه الحياة كما أرادها لك الفهم التربوي في مناخات المنزل، وكما شـعرت بها أنت حين شـعرت ببواكير الموهبة، ثم ذهبت إلى الكتب العظيمة لتطورها، فجاءت إلينا بظاهرة شـعرية عربية-سعودية تشتغل بوعي وقيمة إبداعية كبيرة تظهر في ضياء شـعرية التنوير فيها خصـوصـيات تجربة إبداعية جميلة ومتفرِّدة، فهو أي (عبدالله باشـراحيل) يمزج بين الإنشـاد والرؤية، والإنشاد هو غناء روحي تسكنه دهشة موسيقى الكلمات وأجراسـها، فيما الرؤية هي صـياغات الحكمة وفلسفتها في الحياة تنظيرًا وحكمة وطروحات.

وبين الرؤية والإنشاد يتحرك سديم باشراحيل ليفسر لنا نظرته الأخرى في الحياة:

"لَا أَنَا أَرْضٌ وَلَا أَنتَ سَمَاءٌ
فَسَلِ اللَّاعَقْلَ
سَلْ شَيْئًا عَنِ اللَّاشَيْء
عَنْ أَثِيرِي
عَنِ الْأَسْمَاءِ
عَنَّا
نَحْنُ أَمْشَاجُ طُيُوفٍ
حَدَّثَتْ بِالصَّمْتِ أَشْلَاءَ الْهَبَاءِ"

قصيدة الحِسّ السديمي صفحة 50 من الديوان.

هنا ستشعر في قراءتك للنص أن الحياة هي أولًا الإحساس العميق والرؤى التي تجعلنا نُحوّلها إلى أطيافٍ وسُدُم لا نهاية لها، وهذا كما في معنى النص (الحس السديمي) أنها فعل الغيب الذي يراودنا في أزمنة وأمكنة هذه الحياة، وفلسفة باشراحيل تتعامل معه كسديم في اللامنتهي التي لا تقف حدوده عند رؤية معيَّنة، فالحياة تُعاش كما في رؤية الشاعر كي نفهمها قبل أن تفهمنا، حتى نستطيع أن نعيشها بمتعة مَن يرى ويسمع ويفكر ويعيش مشاعر الغيب، كي تأتي موهبته لتشيد معابد القصيدة في حياة نأخذها في قصيدنا إلى أبعد ما يمكن أن نتجاوزه في أفق نظراتنا، وهو ما يؤشر إليه الشاعر

عبدالله باشراحيل ويسعى لتأسيسه في تراثه الشعري كله، أسئلة يضعها ويجيب عليها هو:

"الْإِجَابَاتُ تَصَاغَتْ
فِي خَيَالَاتِ خُيُولِ الرِّيحِ
وَالحِسِّ السَّدِيمِي
وَهَالَاتِ سَحَابٍ عَبَرَتْ ظِلًّا
عَلَى عَيْنِ العَمَاءِ"

القصيدة نفسها ص 50.

هذا الشـــاعر، وتلك هي مشـــاعر البعيد في ذاكرته الشـعرية وجمال موهبتها حين تفكر وهي ترسـم الصـور الشعرية وتتحرَّر من جغرافية المكان المحلي إلى جغرافية الكون الأبعد، حتى نشـــعر أنها حياة تســـتحق أن تُعاش، والشـاعر هنا في هذا الحس يسـعَى ليؤسـس جنائن متعة التجارب والإنجازات وبناء العائلة والانتماء الوطني، ثم يصـعد في سـفينة القصـيدة ليبحر إلى كل موانئ الإصـغاء والحضـــور؛ ليعرف العـالم الآخر أن الوعي لـدى هـذا الإنسان هو وعي حياتي مُعاش بتجربة واجتهاد وموهبة:

"فَأَذْرَعُ الْأَمْدَادَ عَجْزًا
وَأَفْتَرِضُ مَا شِئْتُ
إِلَّا قَبْضَ أَنْفَاسِ القَضَاءِ"

القصيدة نفسها ص 50.

تلك هي الحياة كما يشعر هاجسها، وأكثر ما عبَّر عنها في مجمل منجزه الأدبي كان ضمن لواعج قصائده، وكأنه يعطينا دروسًا حياتية خَبِرها وعَرَفها ولامسها ليُنتجها لنا مُصاغة في قلائد قصائده. ومع نتاج شعري وفكري متعدِّد تشعر مع باشراحيل الإنسان والشاعر والمفكر، أن الشاعر لا يكتب عن حياته لاحقًا إلا عندما يضع بدايته في أول السطر، ذلك لأن البدايات تزيد من هاجس البَوح عندما يريد أن يعيد بلحظةٍ ما استذكار محطاته الأولى، وهي حتمًا محطات يسكنها الحماس والتشوق والرغبة، حين يشعر بأن متلازمتين تسيران معًا في أول مشاوير الحياة، النجاح بالعمل والشعور بنمو الموهبة، ومنذ تلك البواكير تبدأ مسيرة الحياة وأول المؤثرات فيها في أغلبها هي أيام البيت الذي يعيش ويتربَّى فيه الشاعر وأقصد الأب والأم والإخوة. وهو ما يمكن أن يكون الجهة التي يذهب إليها أصحاب السير الذاتية وهم يبدؤون في كتابة أسفار حياتهم.

ويبدُو أن الشاعر يولد ومعه إحساسه بموهبته منذ نعومة أظفاره، وصورةُ المكان الأول هي صورة الأحلام،

وقد كُتب له أن يكون هذا الحلم جهة النجم الذي يذهب إليه ويرتدي ضوءه عباءة انتظار مجد الشعر.

هذه هي موهبة الشـــاعر وهو يســـتعيد أيامَه وذكريات ودروس حياته، وكيف يقرؤها ويتذوَّق من قِطاف الشجرة التي زرعها وســـقاها على مدى صـــباحات عمره، وربما الحياة عن وقائعها المعاشـــة كما في قصـــيدة قطاف في الصـــفحة/ 66 من ديوان قرابين الوداع، التي توضـــح في عمق معانيها رؤية لتجديد أعمارنا بالرغم من أحكام العمر ومتغيِّرات الجســـد، فيأخذ من حبيبته ضـــفة الأمل التي يعبر إليها ليفســـر لها حقيقة أن نعيش بعيدًا عن متقلبات التغيرات الحياتية ومشـــاعرها عندما تتقدم أعمارنا، فهو أيضًـا هناك يصـنع سـديمًا آخر هو الجمال، وهو يرتدي ثوب الأمل وثوب إيمان الإنسـان بأن الخلود تُصـــنع أزلية أزمنته من خلال ما يُبدعه الشـــاعر ويُقدِّم، فيبقى الجمال فيه خالدًا ولا يُغيِّره تقادم الأعوام حتى توقف القدرية بعد عمر طويل، وبســـبب ما يترك من إرثه الثري والأصـــيل تبقَى حياته فينا وفيمن يرثونه من أبناء وأحفاد، إنه قطافه الجليل الذي هو ثروته وكنوزه:

يَـا مَـالِـكَ الـزَّمَـانِ وَالـدُّهُـورِ

هَــلْ أَذِنَ الــرَّحِــيــلُ وَالأُفُــولُ
أَمْ بِــالشَّـــــقَــاءِ تُــورِقُ الــدُّنَــا
فَــخَــلْــفَــهَــا وَقُــودُهَــا الْــمَــهُــولُ
فَــلْــنَــقْــطِــفِ الْأَفْــرَاحَ كَــالــزُّهُــورِ
مَــا دَامَــتِ الْــحَــيَــاةُ لَا تَــطُــولُ

قصيدة قطاف/ ص 55.

وهكذا أتت موهبة الشـــعر من خِبرة تلك المحطات الحياتية وتجارِبها، فبين الأدب كموهبةٍ وإدارة الأعمال كمهنةٍ، قصة قديمة عاشت لتصنع من ذات الشاعر عبدالله باشـــراحيل ذات الهمة، فيه الكثير من مواعظ الحياة، وأصـبحت بالنسـبة له عناوين عريضـة يهتدي بها، ومتى تأمَّلت عناوين ديوانه (قرابين الوداع) اكتشـــفت القرين الأبدي بين الخلق والكلمة يجعل من الكتابة هاجسًـــا للحضـــور الدائم في حياتنا، وربما هي أقرب نقطة مؤثرة لذلك المُطلق الذي نَنشـدُه، ولكن أحدًا لم يحصـل عليه الآن. فمنذ غفوة جلجامش قرب زهرة الخلود وسرقة هذا الزهر من قِبل الحية والإنســان يقيم من الكتابة مشــاريع واختراعات وتصـوُّرات للوصـول إلى ذلك الحس الهائم بين المجرات الذي وحده يستطيع أن يوفر لنا أزلًا منتشيًا

يجعلنا نشـــعر بأبَدِ الســـعادة، فلا نشـــيخ ولا نمرض ولا نموت. غير أن البعض إزاء نظرة كهـذه يبـدو غير مُبـالٍ بـالقِيمـة الأبـديـة التي يمكن أن يوفرهـا وعْيُنـا الكتـابي، والوعي عند الشـاعر الدكتور عبدالله باشـراحيل هو وعي يرتبط بقوة الكلمـة والإيمـان الروحي والتعلُّم من التراث الفكري لوالده رحمه الله.

قرين لأبدية مجد الكتابة وقرابين ســـجلت نذورها في أغلفة الكتب التي أحسـن فيها وضـع موهبته على أوراقها؛ لنعرف أنه مُشـبَع بتجربة الحياة، وكان أبواه قدوتَه في هذا العالم، وربما من يقرأ قصـائد الحياة في عالم باشـراحيل يكتشـــف هذا المؤثر العائلي لأتذكر قولًا: الْأَبُ هُوَ ذَلِكَ الَّذِي تَطْلُبُ مِنْهُ النُّجُومَ فَيَعُودُ إليك ومعه كل الضوء.

ويبدو أن محطَّة الأب في حياة باشـــراحيل واحدة من دروس الفكر الإنسـاني الذي نشـعر فيها أن مناجاة الشـاعر لأبيه في هذا الديوان هي أقصَـــى ما يمكن للحياة أن تراه في مودَّتهـا وإعجـابهـا بـالآخر عنـدمـا يكون هو الأب، والمعلم، والقدوة، ومُصـــحِّح مســـارات البدء في أولى محطات حياتنا:

كَـمْ عَـاشَ مِـثْـلَ أَبِـي يَـحْـوِي خِصَـــالَ نَـبِـي

هُـوَ مَـنْ سَـــمَـا نُـبْـلًا وَعَـلَـى السُّـــمُـوقِ رُبِـي

قصيدة أبي/ ديوان قرابين الوداع ص/ 137.

نعم تربَّى على السُّـــموقِ، فأورَثَ للشـــاعر قِيَمه النبيلة لقارئه ولأهل بيته وللقريبين منه، وحتى هذا الســـموق هو عباءة أبيه التي يرتديها كلما طُلب منه أن يتحدث عن حياته وتجاربه وسيرته الذاتية:

ويتمنى أن يكون في كل تفاصيل حياته المهنية والعملية كما والده الذي:

قَـــدْ عَـــاشَ مَـــوْفُـــورًا بِـــالْـــبَـــذْلِ وَالْـــقُـــرْبِ

وَمَضَـــــى لِـــبَـــارِئِـــهِ فِـي عُـمْـرِ مُـحْـتَسِـــبِ

مَـــا زَالَ ذِكْـــرُ أَبِـــي بِـــالْـــخَـــيْـــرِ مِـــثْـــلُ أَبِـــي

ديوان قرابين الوداع ص/ 137.

بين ثقافـة الأب التي كـانـت تعيش جغرافيـة البيـت ومجـالس الأدب في المـدينـة (مكـة) وثقـافـة الابن التي تعدَّتْ في مشـــاوير الحياة والجغرافيات الأبعد بيروت، والقاهرة، وسـويسـرا، وكولمبيا، وفاس، ودمشـق، ولندن، ومـدن بلاده، وأخرى كثيرة، نكتشـــف أن المتلازمـة بين العمـل المِهني والتجـاري والأدب لم يؤثر على إبـداع الشـاعر في نِضـاله الحياتي ورغبته لإثبات نفســه في كلا

المجالين، فكانت موهبة الكتابة هي الأجمل في مواهب كثيرة تملَّكته.

تقول فرانسوا ساغان الروائية الفرنسية الشهيرة: "أكتب لأُحرِّر نفسي من خطر التلاشي في أمكنة هي لا تصلح حتى لتطوير شكل الخط الذي تعلمتُه في المدرسة."

مشاعر مثل هذه في اتجاه الكتابة ننقاد إلى توسيع ذاكرة الذهن لحظة الشروع بالأداء الكتابي لهاجس أو موضوعٍ ما؛ فنرى دور المؤثر في بناء النص. وهو إما أن يكون تأثيرٍ لمكان أو زمان أو عاطفة مصنوعة من شاخصٍ ما في حياتك، والشاخص الذي أمام أجفان الشاعر عبدالله باشراحيل هي ظلال والده ومحطات الحياة العملية الأولى في تجاربها الصعبة والخطرة، والتي أكسبته اليوم نضوج التجربة ومهارة الكتابة؛ لتكون في المحصِّلة تراثًا شعريًّا وأدبيًّا كبيرًا، فِعَال كثيرة ولكن في مستويات تقف عند حدود نِسَب ما، ولكنها في الآخر هي نتاج للذاكرة الإنسانية.

هذا النتاج يرتقي مع شاعر مثل عبدالله باشراحيل ليكون دلالات جمالية في قدرة المبدع على جعل حياته زاوية يطل منها قراؤه إلى مواطن الجمال ومعرفة سر تعامل الشاعر مع ما يراه ويعايشه ويصادفه في حياته.

لنرى الحياة في محطات الشاعر، هي استعادة الأمكنة بلغة الزمن، ومرَّات يتعاكس الأمر فيكون استعادة الأزمنة بلغة الأمكنة، فتراه (باشراحيل) يصنع أناشيد ما يمر عليه لتكون تأريخًا لأساطير الحس الذي يسكنه في هذه الحياة ويكون واحدًا من شهود عصره، عصر الشعراء والثقافة وموهبة الرجل المحتفي بصدق التحوُّلات بين تلك الأزمة والأمكنة، يضع تواريخ مجد الكلمات ويصنعها روحًا طافحة بتوهُّج قارئ الشعر وكاتبه، إنه مكان زمانه وسادن عقارب ساعة الوقت فيه:

الزمان:

"مِثْلُ خَلْقِ الشَّمْسِ وَالْقَمَرِ
وَمِثْلُنَا البَشَرُ
يَدُورُ حَوْلَنَا
وَفَوْقَنَا
وَتَحْتَنَا
فِطْرَتُهُ أَنْ يُحْدِثَ الْأَيَّامَ
لَا يَصْنَعُ الْأَحْدَاثَ
لَا يَسْكُنُ الْمَكَانَ"

قصيدة الزمان/ ص/ 267/ ديوان قرابين الوداع.

ومع تذكارات الشاعر (الدكتور عبدالله باشراحيل) في حياته ومحطات أحلامه الشعرية والأبوية، وتلك التي يقام له فيها الاحتفاء والمهرجان، ويصنع لها في قصائده هواجسه لحياته بين الزمان والمكان هاجس الحنان، أحاول أن أطبق رؤى قراءاتي لعالمه الشعري والفكري، وأصِلَ إلى عميق إحساسه وهو يريد أن يصل معنا إلى فكرة ان الشعر هو من بعض جماليات أحلام الروح البشرية، فلقد كان إحساسه اتجاه الكون كما يحس صاحب الدرس وهو يروي لتلاميذه قصة حياته، وفي أغلب حواراتي معه كان هو يروي لنا أن محطات الحياة إن لم تتعطَّر بتجربة ومحنة الانتباه لن تكون مفيدة ولذيذة، ويقول كما في النافذة الثالثة: إن والديه قد علَّماه كل هذا، فأشعر حين ولد الإنسان ليكون رائيًا قبل أن يكون شاعرًا أو رائد فضاء، وكان البدء معه بحثًا في الموجود وقراءة الإحساس الغامض الذي يسكنه، فيحولهُ إلى انفعال أو يذهب ليُعبّر عنه بشكل افتراضي مثل إحساسه أنَّ الكون مسيطَر عليه من خلال الرُوح البعيدة، والتي ابتدأ معها في بدء التصوُّر، وحين تطورت التَّخيُّلات والرؤى وُلدت الأساطير وتطورت الرؤى الغيبية إلى فعل التدوين، وأخذت المشاعر معه تنمو باتِّجاه احترام العُرف

والشـخوص، فكانت من تراثها الأسـاطير والحكايات وما تمَّ اختلاقُه أو التَّعايش معه أو الإيمان به، فأتى لنا تدوين قصص الخليقة وما صاحبها من قصص لملوك ومؤرخين وأساطير وأنبياء وقدِّيسين وقادة حرب.

هذا التدوين يكتبه باشـراحيل بشـكل آخر عبر مدوَّنات حياته التي نجدها تتناثر كسُـحُب في سـماء قصـائده، متى مطرت ظهرت لنا صـــورة الحياة كما يراها هو صـــورة التجانس بين المكان والزمان الذي:

"وَهُوَ السَّدِيمُ كَالْمَجَرَّاتِ مُسْرِعٌ
يَحْمِلُ الْكَوْنَ عَلَى ظَهْرِهِ
مَا شَكْلُهُ مَا لَوْنُهُ مَا وَصْفُهُ
كَالْهَوَاءِ وَالرِّيَاحِ لَا
كَالطُّيُورِ كَالْخُيُولِ لَا
كَالْجِنِّ أَوْ كَالْإِنْسِ لَا
يَجْرِي إِلَى الْأَمَامِ
وَلَا يَعُودُ لِلْوَرَاءِ"

قصيدة الزمان/ ص/ 267/ ديوان قرابين الوداع.

وأظن أن هاجس كل فلسـفة باشـراحيل هي العودة إلى الوراء وكأنَّه يُردِّد صـدَى كلمات الشـاعر الفرنسـي سـان جون بيرس «الإنسان هو مَن يقود خيولَه إلى الأمام».

ففي واحـد من أغراض الـديوان (قرابين الوداع) التي تُحسِّسك أن الشاعر هنا ذهب إلى آفاق أبعد هي إنسانية القصيدة وجهاتها الأربعة التي لا تنتهي عند مكان النشأة؛ حيث ولد، ثم ذهب بتجربته عبر توازنات حِسيَّة وشعرية يستطيع فيها (باشراحيل) أن يُرِيَنا عناوين في قصائده تنبئك بأن الشاعر يذهب إلى الجهة الأبعد، وهذا ما نلمسه في باقة مُضاءة بأنوار الشعر وقلبه من عناوين الديوان. فلا يقف عن حدود بيئة واحدة؛ بل تطلقه أنهار ضوء قلبه إلى مسارات ضفاف خالدة تجعله يسير مع الرؤى بقُدرة الابتهال والابتهاج وقراءة الأحاسيس المضيئة.

وهكذا هي الحياة بالنسبة إليه، ثمرةُ تَصاهُرِ الموهبةِ مع النجاح العملي في الحياة، وهذا أنتج لنا تجربة ثرية سعت لتؤسس لتجربة شعرية تفرَّدت في تعدُّد أغراضها وجمالية اللغة فيها ونضوج أفكارها.

وهي في مُجمل ما قدَّمه الشاعر (عبدالله باشراحيل) إنما هو نتاج حياة تعدَّدت محطاتها لكن جهة الأفق واحدة، وينظر من خلالها إلى مساحة الأضواء الساطعة أمام ناظريه وأحلامه وذاكرته التي تقرأ ما تبتهج في رؤيته في حياتها في آيات من الحمد الإلهي الذي لا ينتهي،

وهي تكتبه بدراية وتجربة حياة وبخشوع أيضًا، ليصنع لدينا رؤية الواضح والمخفي في دنياه التي هي دنيا مَن يقرؤه ويستمتع بما يُبدعه:

سَأَلْتُكِ يَا دُنْيَا مَتَى تَعْدِلُ الْمُنَى
فَتُرْمَى لِكُلِّ الْبَائِسِينَ زُهُورُ
وَإِلَّا تَمُورُ الْأَرْضُ لَا دَرَّ دَرُّهَا
وَنَحْنُ كَأَطْفَالِ الْجِنَانِ بُدورُ
وَيَنْشَقُّ هَذَا اللَّيْلُ عَنْ وَجْهِ رَبِّنَا
وَنَنْظُرُ وَجْهَ اللهِ وَهْوَ مُنِيرُ

قصيدة يا دنيا/ الديوان ص 118.

الفصل الثاني

الشاعرُ يقدِّم نفسه

2

بابٌ ثانٍ في المقدمة الأدبية لديوان (قرابين الوداع) للشاعر السعودي الدكتور عبدالله باشراحيل. وقد كتبه ليس بصيغة الأنا، وإنما بصيغة الآخر، أي كأنَّ أحدَهم يتحدث تعريفيًّا بالشاعر بصيغة الآخر، فيكون الآخر هو الأنا، وفي الحالتين فالشاعر يريد أن يوجز لقارئ كتابه الشعري ما قد يريد أن يعرفه عن مؤلف هذا الكتاب، لكن باشراحيل لم يذهب هنا إلى الأرقام والملتقيات والألقاب والإحصاءات، بل ذهب إلى تعاريف وجدانيَّة وأدبيَّة واستشعاريَّة تُمثِّله هو، وتعكس عن كوامنه هو، حتى وإن أتت بصيغة الطرح المباشر للعنوان الرئيسي للنافذة الثانية لهذا الديوان وهي (مَن هو عبدالله محمد باشراحيل الكِندي)؟

لكن هو لم ينسَقْ إلى المباشرة، بل إن التعريف ذهب إلى مسالك لغويَّة جماليَّة أسكنتها عاطفة الروح في التعريف عن كوامن موهبتها والبدايات، فقدَّم نفسه بتهذيب العبارة وجماليتها، وضمن الواقع المعاش في بيئة

يحسب لها الفضل أنها علَّمته، وهي التي امتلكت الفضل في تنمية الموهبة لديه، وأوصلته إلى ما هو عليه الآن، وما يقدمه عن شخصيته الآن ليس سوى مقدمة بلاغية لذاته عبر تواضعها ومديحها لمن أوصلها إلى هذه الضفاف التي جادت عليه بالوجدان والإلهام والسلام، فكان لها شاكرًا، وطنًا ومملَكَةً وقبيلةً وعائلةً تبدأ من أول الأجداد إلى مفاخر الأب والأم.

تكتشف وأنت تقرأ تعريف الشاعر بنفسه إنما يتحدث عن رضاه لما أبدعت به وقدمت نفسه هو ولكن ليس بصيغة المغترِّ إنما تواضع الحساس يكشف عن كوامن أخلاقيَّة وإبداعيَّة وروحيَّة تسير هذه الذات لتعبِّر عن نفسها، وعلى القارئ أن يذهب بعد ذلك ليُقارن بين الأحاسيس الطيبة في القلائد الشعرية التي زيَّنت هذا الديوان (قرابين الوداع) وبين التعريف المُنمَّق باللغة وسهولة إيداع الحب لدى المسامع وهو يقول لقارئه ومن دون مباشرة: (من أنا؟). فتكون دالَّة الانتماء أولًا إلى أمَّة عربية، هي خير أُمَّة أُخرجت للناس، ومنحت الحضارة بإنسانيتها وتواريخها إضاءات ونوابغ علم واكتشافات تعدَّدت مشاربها لغةً وفصاحةً وعِلمًا واكتشافاتٍ. فكان على الشاعر أن يُعرِّف بنفسه من خلال لغته وثقافته

وهاجس إحساسه، وليس بلغة الأرقام والتواريخ وبطاقات الهوية والتعريف.

أعرف الشـــاعر عبدالله باشـــراحيل جيدًا، لهذا أقرأ شـــخصـــيته جيدًا من خلال طرحه لنفســـه بدلالات اللغة المُعبِّرة والتي يعتمدها كما يفعل الفنان في رســـم اللوحة، فيرســـم لنا الشـــاعر نفســـه من خلال طبيعته وتطبُّعه، وما تعلَّمه وعلَّمه، وما أنتجه عبر تراث جمالي شـــعرًا ونثرًا، ابتـداءً من ديوان (معـذبتي) - القـاهرة 1978، وانتهـاءً بـــــ(قرابين الوداع) - القاهرة 2024. فهي إذن ســـبعة وعشـرون ديوانًا شـعريًّا، فيما اشـتغل في الجانب الفكري والنقدي بدءًا من كتابه (أصداء الصمت) - بيروت 2000، وانتهاءً بكتابه (صـــدى العصـــر) - القاهرة 2004.فيكون المجموع للنتاج الفكري ســبعة كتب في النقد والفلســفة وأفكار أخرى، عدا ما تُرجم وكُتب عنه في كتب بحثية تدرس عالم باشـراحيل الشـعري من عدَّة أوجه، وكذلك الكثير من رســـائل الماجســـتير والدكتوراه التي تناولت مضـامين مختلفةً في شـعر باشـراحيل وتأثيراته من خلال تعـدُّد أغراضـــه وقيمته الجماليـة، واللفظيـة، والـدلاليـة، والروحية التي كتبها منذ مشـــاعر النبوغ الشـــعري وحتى آخر كتبه التي نتأمَّل في نوافذ مقدِّمتها، ونقف الآن عند

تعريف الشاعر بنفسه، وهذا التعريف المكتوب بلغة الآخر أو بلســـان الحال وفيه قناعة غريبة بالذات التي تُدرك أنها تمتلك المكانة والسبب أن أفعالها الخيرة والمفيدة كثيرة، وربما لمس الشـــاعر أن محبَّة الناس له آتية من التقدير الذي يناله عندما يحطُّ رحالَه بينهم، فالآخر أو لســـان الحال يعرف نفســه كالتالي: ((وقَدْ أَحَبَّه النَّاسُ مِن شَـرْقِ بِلادِ اللهِ إِلَى غَرْبِهَا، وشَـمَالِهَا إِلَى جَنُوبِهَا، أَيَّانَ أَدَارَ وَجْهَهُ يَكُونُ لَه مِنَ اللهِ نَصِـــيرٌ ومُحِبٌّ وخَلِيلٌ، وَهُو سِـــرٌّ مِنَ الأَسْـــرَارِ بَيْنَه وبَيْنَ اللهِ، فمَنْ أَحَبَّ اللهَ أَحَبَّهُ اللهُ وَحَبَّبَ فِيهِ الْخَلْقَ، فَلَا يَخْشَى ضَيْمًا وَلَا رَهَقًا))

ومن يقرأ التقديم المكتوب قصدًا وتواضعًا بلغة الآخر، سـيكتشـف أن هذا النوع من الحب الإنسـاني والإيماني والثقافي وحتى الحضـــاري ليس وليدَ لحظة ولادة ديوان أو كتاب فِكر، إنما هو امتداد لإرث المودَّة القائم منذ أن عرفت حواسُّـــه الروحية والعقلية أن لديه موهبة مختلفة لونها ذكاء العقل والاجتهاد، وفي سبعينات القرن الماضي -وهو في عشـــرينات عمره- غامر بإظهار موهبته على الورق في أول ديوان شـــعري له (معذبتي)، وكل قصـــائد الديوان وقتها كانت بَوحًا وجدانيًّا جريئًا بشَّـر بلغة شـعرية جديدة في المسارات الأدبية لبلاد كانت مدنها وصحاريها

وجبالها مهابطَ سحريةً لنشأة الشعر العربي عبر معلَّقات خالدة كُتبت قبل عصر الهداية المحمدية ومجيء الإسلام.

ولأن كِندة كانت مولدًا لفطاحل هذا الشعر، فإن مجيء قدر الموهبة في نبض قلب الدكتور عبدالله باشراحيل ليس قَدَريةً مرهونةً بصُدفة حياة، إنما هي قَدَرية مكتوبة بإرث وتاريخ وصلة، وكأنك تستشعر أن امرأ القيس فطحل الشعر عند كِندة قد أورث باشراحيل موهبتَه وجزالة ما كان يقوله وينطقه ويُجاهر به.

لهذا فإن الشاعر حين يُعرِّف بذاته فهو لا يحتاج إلى الكثير من التفسير، وقد منح قارئه إشارات أرادت الجانب الروحي ومشاعر الذات التي لا تحب مفاخرة الأرقام والألقاب، بل أتت لنوافذ السماع قولًا منه وهو يُعرِّف نفسه بهدوء وبلاغة وبساطة أيضًا، فهو إذن يضع لنا سيرةً شخصية من نوع خاص يتلذَّذ فيها الكلام وتتعدَّد فيها الصور وكأنه مثل أبيه وجده نسج للحياة منوالَ التواضعِ والاجتهاد في العلم قبل العمل، والصلاة قبل أي خطوة في الحياة، والتعلم سماعًا للتهيُّؤ للتعلم كتابةً، فنراه هنا يضع الوصايا بتواضع مبدع ومفكِّر ويطلب من قارئه أن يرى شخصية عبدالله باشراحيل من خلال من يتحدث هو

نفسه، وعندها سيرون ملامحه بوضوح ومعها إرث الرجل الذي لم يزل يمدُّنا بعطاء أثماره وغيث أمطاره.

هذا المداد هو مادة روحية وتاريخية وإنسانية يُعرِّفنا من خلاله الشاعر بما امتلكه وانتمى إليه. وأظن أن المكان هو من بعض أوجه التعريف، فكانت مكة المهد، بقُدسيَّتها وخلودها ومقصديتها لطقوس التقرُّب إلى الله في مناسك الحج هي من يُطلق منها الشاعر عبدالله باشراحيل أضواء نشأته وولادته من سلالة طَيِّبة لعِرق أصيل وأجداد طيبين، ويصلحون ليكونوا مصدر إلهام لأحفادهم، ومتى أَعدتُ قراءاتي للَّمسة الأدبية لهذا الشاعر الممتلك لأدواته الإبداعية تذكرت أن أي قارئ لنتاجه لن يتعب في العثور على منهجية تاريخية بأرقام وأحداث للسيرة الذاتية لباشراحيل وإنما في حديثه عن مكة وما تعتقده موهبته، وهي تصب ماء العطر في حدائق ذاكرته المتأمِّلة لأشعار الشاعر ونتاجه الفكري؛ لأقارن مثلهم بين ما يتحدث فيه الشاعر عن نفسه في التعريف والمقدمة وبين المكان (مكة)، وصلة قلب الشاعر العاشق لروح مكة التي كانت ومنذ صباي وحتى حلمي الذي لم يحققه القَدَر أن أزورها وأقرأ في مرابعها تلاوة المديح لواحد من أفذاذ شعرها المعاصر. وصوتها الأكثر وصولًا في مرابع التعريف

بمدينته عن طريق القصـيد. رجل للكلمة والحلم والقُدرة على أن ينتظم في همسـه ومقدرته وسـعة الخير فيه ليكون شـاعرها اليومي وكأن إيقاع قلب المدينة ونبضـها يعيش فيه أينما يشرق أو يغرب.

مكة إذن ولادة الشـاعر وهي الأقرب دلالةً للتعريف بنفسـه وهو يتحدث إلينا في هذه النافذة عن شـاعر اسـمه عبدالله محمد صالح باشراحيل، ولد بمكة واخضر عوده، ولاحقًا تعرفه مجالس الأدب بأنه مبدع ويمتلك موهبة التفكير ونـال شـهـادة الـدكتوراه في النظم الفلسـفيـة والمحاسبية.

لكن هنا أُعرِّج على ما يتحدث فيه الشـاعر عن ذات الوجود لديه، وكيف يرى الشـاعر نفسـه من خلال مكان ولادته التي تسـكنه روحًا لا تغترب فيها عاطفة ودفء مهند وسـنى عاطفة الانتماء، فكانت مكة تاريخًا أزليًا لرجل لا يحلم أن يكون واحدًا من أبنائها فقط، بل أحد شعرائها:

عَلَيْـكِ عَلَى قَوْمِي بِمَكَّـةَ سَـلِّمِي

وَحَيٌّ يَسُـوقُ اللَّيْـلَ مِنْ أَرْضِ جُرْهُمِ

تَـذَكَّـرْتُ مِـيـلَادِي بِـهَـا وَتَـعَـلُّـقِـي
بِـفَـاتِـنَـةٍ هَـيْـفَـاءِ بِـنْـتِ الـتَّـنَـعُّـمِ
أَرَقُّ مِنَ الْأَنْسَـــامِ مِنْ قَـاطِرِ النَّـدَى
وَأَجْمَـلُ مِنْ وَرْدِ الصَّـــبَـاحِ المُنَمْنَمِ

وحتى لا نبتَعِد عن هاجس المكان في تعاريف الشاعر بنفســه نبقَى مع هذا التعريف عن الذات المكتوب ببلاغة من وَعي ومحاولة الوصـــول إلى قلب القارئ من خلال لطافة الكلمات وسـياق الكلمات الهادئات، وهي تتحدَّث عن طبائع ما فيها، وقد أخذت من محطات الحياة روح هـذه التعريفات لتقدِّم لنا وجهًا لا يتلوَّن ويتغيَّر، بل هو كما في كبرياء قصـيدته الشـخصـية ذاتها والرجل ذاته عبر مخاضـــاتٍ لم تكن بالســـهلة، فقد خاض غِمارها ليكون ويتكوَّن، وربما موهبة الإلهام الشعري والكتابة هي واحدة من ثمرات هذا النضال في الحياة:

((لَمْ يكُن عبدالله باشـــراحيل بِدعًا من الخلقِ، فلَكَم حَفَر في صَـــخْر الحياةِ كغَيرِه من طُلَّاب فَضْـــلِ اللهِ، وذاقَ مَرارَةَ الجُهْدِ والتَّعَبِ والقَسـوَةِ، فلَمْ يُخلَقْ وفي فَمِه مِلعَقَةٌ مِن ذَهَـب -كما يُقال- وَإنَّما أَتَى ليُصـــارِعَ كَبِدَ الحَياةِ ويُصـانِعَ هُمُومَها ويَبذُل -غيرَ هَيَّابٍ- مِنَ الفَقْر في وُجُوه

الخَيْر، فإذَا أرَادَ أَنْ يُمسِـــكَ يَدَيْه بالعَطاءِ بِقَدرِه لا بأَقْدَارِ النَّـاسِ غَيرَ مُتكَلِّفٍ وَلا مُتصَـــنِّعٍ، إنَّمَـا هِيَ قُـدْرَة جُبِـلَ عَلَيْها)).

هذه هي كَينونَة الرجل يُوضِّحها في زهد الكلمات التي يُعرِّف فيها نفسَـــه، ومتى أردنا أن نعكس مُفتَتَح النافذة الثانية في هذه المُقدِّمة (مَن هو عبدالله محمد باشـــراحيل الكِندي؟) فإننا لِنَكتشِـــفَه علينا أن نَغُور عميقًا في نتاجه الأدبي والفِكري، ومتى قرأت زادك من ملهماته عذوبة نغم الكلام وأفكاره المُضيئة بالقِراءة والتأمُّل حتى تقترب إليك ملامح الشـــاعر بكل تفاصـــيل ما أورده هنا، ليس ليُقدِّم نفسَـــه كشـــاعرٍ وأديب، بل ليُقدِّم نفسَـــه كإنســـان، والإنسانيَّة عند الدكتور عبدالله باشراحيل هي الحب، هي التواصُـــل في صُـــنع قِيَم الجمال والكلمات في صـــدقها ونظافة معانيها، وعلى صدَى تلك المُهمَّات الإنسانية التي تكفَّل بها يعكِس البناء الروحي والأدبي في نتاج باشراحيل أبرز تلك الصـــفات التي عرفنا من خلال شـــخصـــيته ومحطاته الحياتية التي عزَّزها بنتاج يتلذّذ فيه القارئ بسِـــحر بيانٍ، ورجاحة أفكارٍ، ومنطقِ عقلٍ، وإنســـانيةِ فِردَوْسِها، وأمكنة الحب والوفاء لوطنه، ومَكَّتِه، وعشيرته، وذَوِيه، وكلِّ أهله وأصدقائه ومُحبّيه وقُرائه.

هذا الحب دَيدَنُه يظهر في عاطفة التعريف التي يتكفَّل بها الوجه المُضيء الآخر لباشراحيل؛ فيُرِينا عالَمَه الذي ظلَّ وفيًّا له، وظلَّت كلمة الحب تمشي مع موج بِحارِه وأنهاره التي يشرب منها القارئ لذَّةً من مطر الشعر والحب، وتلك الإنسانية التي جعلها واحدةً من صفات التعريف بالنفس:

الْحُبُّ فِي الْأَرْضِ مَوْقُوفٌ عَلَى اللهِ

وَالْوُدُّ فِي الْأَرْضِ مَتْرُوكٌ إِلَى النَّاسِ

الْحُبُّ أَكْرَمُ أَنْ تَمَسَّهُ شَائِبَةٌ

أَوْ أَنْ تُبَدِّلَهُ حِسُّهُ بِإِحْسَاسِ

الْحُبُّ أَقْدَسُ مِثْلُ الرُّوحِ فِي بَدَنٍ

كَالنُّورِ يَبْقَى مُشِعًّا مِثْلَ أَلْمَاسِ

وهكذا مع تعريف الشاعر بنفسه عبر نافذة الحب بأَزَل طقوسه وأبديتها وإنسانيتها تَستشفُّ وتكتشف وتراه في هذا التواضُع رغم قوَّة البِناء البلاغي لجُملَته التعريفيَّة تراه يرسم لقارئه مساحاتٍ من التأمُّل والرغبة في قراءة ما أنتجه شاعر وسينتجه لاحقًا.

وفي كُلِّ ما كتبه باشراحيل من نِتاج رحَل معه إلى الدنيا كلِّها، حتى إنك تشعر أن ابن بطوطة زار الدنيا لِيَراها

ويكتب عنها بلغة الجغرافية، لكن باشـــراحيل الشـــاعر والإنسان زار الدنيا ليَراها ويكتب عنها بلغة الروح.. وهذه اللغة اســتشــرافيَّة، ومتى يُعرِّف الشــاعر عن نفســه لقارئه تُدرِك أن هذا التعريف لا يَشــمل رُؤيتَه التاريخيَّة لمســيرة الشــاعر، فهي موجودة في مُلحقٍ في آخر الديوان (قرابين الوداع)، لكنه هنا يُقدِّم سـيرة الروح، وهي سـيرة وجدانية إيمانية، ولو أن أحدًا لا يعرف منهجية الشـــاعر في حياته وفلســـفته وعمله لقال: إن الشـــاعر في تقديمه لنفســـه والتعريف بها يميل إلى بعض رؤى الصـــوفية في إظهار دالَّة الروح والوجه في مغانم الحِس وعِطره.

والحقيقـةُ أننـا في هـذا التعريف نجـد مغنمًـا للروح والحِس، ولكن بطريقته الواقعيـة والإبـداعيـة التي عَرَف فيها العالم كلُّه مِن قُراء وصُـحبة ودارسـين ومجتمع مكة والأمكنة التي درس أو حاضـــر بها، عرفوا في ســـجايا الرجل أن الهادئ والمُنتَبه إلى قوام مُنجَزه، والسائر بهدوء وحكمة إلى جهة النور ليكتشف رؤية القصيدة وفي ثنياها يكون الترحال؛ ليرى العالم ويكتب عنه بقلمه وروحه، وتلـك الموســـيقى الهـادئـة في الوزن وإيقـاع القوافي والعناوين الحياتيَّة والإنسانية الكثيرة.

يكتب الشـــاعر مُقدِّمًا نفسَـــه لقارئه، وعلى القارئ أن يتهيَّـب مع الكلمـات، وأظن أن أن كـل الـذي أقرأه في تقديم الرجل لنفسه أنه يضعنا عند حدود قناعة جمالية أن يجد الإنســان نفسَـــه مع موهبةٍ كبيرةٍ يمنح فيها الآخرين متعة الذوق، ولذة الســماع، ونشــوى الفائدة، فأشــعر أن مُجمَل النِّتاج الشــعري والأدبي الذي قرأته لهذا الشــاعر ينطبق عليه ما كتبته في علاقة الشــاعر بما يُنجزه ويُبدعه، حيث تتوافق الرؤية هنا فيما يُحدثنا فيه الدكتور عبدالله باشـراحيل عن نفسـه، ولكن هو فضَّـل البلاغة والصـوت الآخر في إيجـاز تعريف من دون تواريخ، ولكنـه في الحقيقة رَسَـم لنا تفاصـيل وافيةً وواضـحةَ الملامح عن شـخصـه ورسـالته في الحياة لأفهم من موجزه التعريفي قيمة أن يكون الإنسان شاعرًا مجيدًا وعارفًا بخفايا الحِسّ لأعود إلى رؤيتي عن الشعر والشاعر.

لقد ولد الإنســان ليكون رائيًا قبل أن يكون شــاعرًا أو رائد فضـــاء، وكان البدء معه بحث في الموجود وقراءة الإحسـاس الغامض الذي يسـكنه، فيحولهُ إلى انفعال، أو يذهب ليُعبّر عنه بشكل افتراضي، مثل إحساسه أنَّ الكون مسيطر عليه من خلال الرُّوح البعيدة، والتي ابتدأ معها في بدء التصـــوُّر والفعل أنْ تخيَّلَها شـــكلًا لأنوثةٍ يرى في

نهديها بدء الخصب ونموَّه، فكان جسدها على شكل دُمية بنهدين كبيرين، وترك المكان الخصب مكشوفًا من دون ورقة التين، وحين تطورت التَّخيُّلات والرؤى وُلدت الأساطير، وتطورت الرؤى الغيبية إلى فعل التدوين، وأخذت المشاعر معه تنمو باتِّجاه احترام العُرف والشخوص، فكانت من تراثها الأساطير والحكايات، وما تمَّ اختلاقه أو التَّعايش معه أو الإيمان به، فأتى لنا تدوين قصص الخليقة وما صاحبها من قصص لملوك وآلهة وأنبياء وقدِّيسين وقادة حرب، ومنها قصة آدم التي رُميت فيها ورقة التين على ذاك المكان لتصير الحكاية ملاصقةً لرُؤى الإيمان الأولى في مراحلها الأبدية، من آدم إلى نوح إلى إبراهيم وأيوب وإسماعيل إلى يعقوب ويوسف ويونس وموسى ويسوع (ع) ثم الخاتمة في محمد صلى الله عليه وسلم خاتم الأنبياء والمرسلين.

هذا التدوين هو العالم الروحي لذائقة الرجل وحياته، حتى عندما يُعرف عنه الناس أنه رجل أعمال ناجح، لكنه في هذه الفاصلة من التعريف بنفسه، يضع الجواب، لم يسأل: كيف لباشراحيل أن يجمع بين النجاح العملي والنجاح الأدبي، فأغلب الاشتغال في عالم المال والأعمال يلهي الإنسان في حياته، ويشغله عن نمو

موهبته وتطويرها، وفي هذا الرَّوِي على لسان الشاعر وهو يحتفي بديوانه ينبّه قارءَه ودارسَه ومتذوقِي إحساسه الشعري أنه بفضل تربية البيت واجتهاد العلم وتجارب الحياة نجح ليكون جامعًا بين العلم والأدب، وبين إدارة الأعمال وموهبة التأليف، وبين هذا وذاك نجح ليبقي الاستشراف في ذاته دالَّة تؤشر على شخصيته ومكانه إذ يقول في هذا في نافذة التعريف عن نفسه:

أنه:

((فلَمْ يَنسَ في أيَّة لحظةٍ حمدَه الله لِمَا وهَبَه من مالٍ وجاهٍ وعُلوٍّ ومكانةٍ في العالَمِين، فقد كانَ مُقدَّرًا ومُكرَّمًا من أصحاب القَدْر العِلمِيّ والأَدَبِي والثقَافِي في غَيرِ حاجةٍ إلَّا للهِ، بل كانَ واهبًا لا موهوبًا لمالٍ أو جاهٍ أو مَنصبٍ، ولكنه حَفِيٌّ بأَهْلِه وقَومِهِ وإنسانِ الحياةِ، يَسعَدُ بصَغيرِهِم وكَبيرِهِم وغَنِيّهِم وفَقِيرِهِم علَى قَدْرٍ سَواء، يَكرَه الكِبْر والغُرورَ والفَسادَ، وكانَ مَفطُورًا علَى الصِّدْقِ والعَمَلِ علَى مُواسَاةِ المَحزُونِين والمَحرُومِينَ والوُقوفِ معَهُم بالسَّرَّاءِ والضَّرَّاءِ.))

هكذا نراه ويرانا (الدكتور عبدالله محمد باشراحيل) رؤية إدراكيَّة لفَهم ما يعتقد أنه يستطيع أن يُقدِّم نفسَه بهذا النمط البلاغي والفخم، يظهر فيه على الرغم من قوة

العبارة وجزالتها وإيقاع صداها في مسامعنا، والجميع ربما توقَّع أن يقدم الشاعر نفسه بصيغة (كنتُ كذا، وعملتُ كذا، وحصلتُ على كذا، وأوشحني بالوسام فلان الكذا)، هو لم يذهب إلى ما يعتقده أن التعريف بالنفس بطريقة عذبة الصورة والمعنى هي جود بمكارم الروح، وهي كما قول الشاعر العربي القديم: أقصى غاية الجود. وإن قيل البيت في جود نفس العربي المقاتل في معركة الفتوحات في اليرموك، إلا أن شبيه الاستعارة هنا أن الشاعر يمتلك جواد الروح يقوده فارسًا في ساحات الشعر ورياضها، وفي حُسن التعامل والمودَّة مع جميع الناس.

نجح الشاعر ليُعرفنا بنفسه، ونجحنا نحن ربما في جمع ملامح الوجه والقصيدة لهذا الإنسان المبدع، ونكوِّن منها صورة لإيماءات الرجل في نظرته العميقة للحياة، ليس من خلال تصاويره التي نجدها مرات على أغلفة كتبه ودواوينه أو تلك التي تضعها الصحف مع قصائده وأنشطته الاجتماعية، بل مع الكلمات التي جعلها تعريفًا روحيًّا وذاتيًّا لتلك الروح التي جعلها الشعر وإتقان موهبته شخصيَّةً مجتمعيةً عامَّة تَدين بالولاء لوطنها ومليكها وقبيلتها وكل مُحبِّيها وقُرَّائها.

شخصية عرفتها وخبرتها ودرستها، لجدها تنطبق تمامًا على كل عبارات التعريف التي أوجزها الشـــاعر عبدالله باشـراحيل عن نفسـه ومُنجَزه لنشـعر تمامًا كما يقول في آخر هذا التعريف:

»كلُّ تِلكَ الخَلائِقِ مجسَّـدَةٌ في شِـعْر عبدالله باشـراحيل ونَثْرِه ويَشْـهَدُ لَه بهَا الذِينَ عَرَفوهُ عَنْ قُرْبٍ، والذِينَ قَرَؤُوا تُرَاثَه باللُّغةِ العَربيَّةِ أوْ مِنْ خِلالِ تَرجَمَةِ آدَابِه إِلَى اللُّغاتِ الأجنَبِيَّـة مِن رُوَّادِ الفِكْرِ والثَّقـافَـةِ والعِلْم من المُلوكِ والرُّؤســـاءِ مِنْ عَربٍ وأُوربيّينَ ومُختلف الجنســيات العالميَّة.«

تلك هي مختصـــرات التعريف للشـــاعر عن نفســـه، وستكتشف أنها نفس توَّاقَة للتواصُل والإبداع والحضور، تلك النفس الواعية والمُدركة لقَدْر ما تمتلك من موهبةٍ وحضـــورٍ وضـــعَها الشـــاعر أمام قارئ كتابِه لتُفصـــح عن خلائق ما لروحها من خلق وإبداع يتجدَّد بلغة العصـــر وحداثة الأدب لغةً وتصـــويرًا ومعنًى، وكأنه يُنير للآخرين شـمسَـه ليكون الضـوءُ جنَّة لقصـائده التي يكتبها إليهم مع كل ضـياء صـباح مُشـمِس من صـباحات مكَّة التي وُلد بها ويعتزُّ بكل ذرَّة من ترابها الطاهر، شـمس مكة التي يُنادِمُها بحَنين كل تواريخ حياته:

غَنَّيتُ فِيكِ السِّـــحرَ مُذْ وُلِدَ الهَوَى
وسَـــــهـرْتُ لَـيـلِـي حَـائِـرًا أَتـرَقَّـبُ
رُدِّي علَى القَلْـبِ المَشُـــوقِ أَمَـانَـةً
إِنِّــي أمـنـتُـكِ والـدُّنْـيَـا تَـتَـقَـلَّـبُ
رُوحِي لَـدَيـكِ وخَـافِقِي وبَرَائَتِي
وَســـنُونُ تَـهْـيَـامِي ومَعِي يَسْـــكُـبُ
هَـا قَـدْ كَتَبْتُـكِ قِصَّـــةً وقَصِـــيـدَةً
لَـوْ لَـمْ أَكُـنْ أَهْـوَاكِ لَا لَـمْ أَكْـتُـبُ

الفصل الثالث

الهاجِس الإنساني هو عولمة الشعر

(تطبيقات المَدى الأبعد في ديوان "قرابين الوداع)

((كما كان لكَ الحقُّ في الدخول إلى عالم الإنسانيَّة، يكون لك الحق في ملكياتها الطبيعية))

الدكتور عبدالله باشراحيل/ كتاب صدر العصر/ سياحة فكرية/ ص 217.

3

الكتابة الشعرية هي نشاط روحي، في تأريخيَّته وأزليَّته، هو هاجس من بين ما اكتشفه الإنسان الأول من هواجس، أي أن الشعر خُلُق إنساني، أتت به مشاعر العاطفة التي أسكنها الله في الإنسان وسائر الكائنات المتحركة أليفةً ومفترسةً، ولكنه الخالق أسكنها البشرَ لتميُّزهم في امتلاك موهبة التفكير والحِسّ وتعمير الأرض؛ لتكون معبدًا هائلًا يُقام فيه الحمد الإلهي بين البشر منذ القِدم وإلى اليوم، والكتابة الشعرية لا تتوارث، وإنما هي ظاهرة روحية تصنعها موهبة يعتقد الكثير أنها وليدة القراءة وحُسن التربية، وعاطفة تهبها لحواسِّنا رحمةُ السماء وعنايتُها، فكانت الصورة الجماليَّة والإنسانيَّة والعاطفيَّة للشِّعر تقترن دومًا بإيمان الشاعر أن موهبته أتت قدرية لعوامل بيئيَّة وروحيَّة وامتلاك غيبي لذلك الإيمان الذي يُحسِّس صاحبَ الموهبة أنه شاعر، وعليه من الآن أن يُطوِّر موهبته وأدواته. وأظن أنه بدون إنسانيَّة الشاعر لا تكون له تلك الصفة التي جعلت الشعراء يقفون في الصفوف

الأولى من طبقات المجتمع، وقد أنيطت بهم مهمَّات حضاريَّة، وثقافيَّة، واجتماعيَّة، ووطنيَّة، وإنسانيَّة.

وهنا حين نقرأ بمتعة سياحة الروح في ديوان الشاعر عبدالله باشراحيل والموسوم بـــ(قرابين الوداع) سنكتشف أن الهاجس الإنساني لا يمكنه أن ينفصل بمعانيه الخَفيَّة والظاهرة في أي قصيدة من قصائد الكتاب الشعري، وربما قصيدة (لَيْتَهم) هي بعض مشاعر إنسانيَّة الروح العميقة داخل قرابين الوداع، وهي في المُحصِّلة روح الشاعر:

وَأَحْمِلُ هَمَّ النَّاسِ حَتَّى كَأَنَّنِي
أَنَا النَّاسُ أَجْمَعُهُمْ وَإِنْ جَرَحُونِي
أُرِيدُ لَهُمْ فَوْقَ الَّذِي قَدْ أَرَدْتُهُ
لِنَفْسِي وَإِنْ طَلَبُوا سَوَادَ عُيُونِي
وَلَكِنَّ بَعْضَ النَّاسِ مَهْمَا أُنِلْهُمُ
مِنَ الْبِرِّ تَجْحَدْنِي وَكَمْ قَطَعُونِي
وَمَا كُنْتُ أَرْجُو الشُّكْرَ مِنْهُمْ وَلَيْتَهُمْ
عَنِ الشُّكْرِ مِنْ أَحْقَادِهِمْ يَكْفُونِي

وكأنه هنا في تدفُّق هاجسه يتوافق من دون قصدٍ مع قولٍ للشاعر عُروة بن الورد:

أُقَسِّمُ جِسْمِي فِي جُسُومٍ كَثِيرَةٍ

وأَحْسُو قَرَاحَ الْمَاءِ وَالْمَاءُ بَارِدُ

وعند تفسير مدارك الكلام في هاجس قصيدة (لَيْتَهم) للشاعر الكِندي (باشراحيل)، وبين عُروة بن الورد تجد الإنسانيَّة ذات المعنى، الفرق أن ابن الورد إنسانيَّته القبيلةُ ومحيطُها، فيما يتوسَّع الدافع وحالته عند باشراحيل ليشمل جهاتٍ ربما بعضها الرعاية الأدبية وجوائزها وخدمات الخير والأعمال الصالحة ومناشط مجتمعية أخرى في بلاده وغيرها من البلدان. والتماثل بين الشاعرين في معنى قوليهما هو الإيثار، والصبر، والقناعة. وقد رأى المفسرون في قول عروة أن الصبر يتكوَّن من فضيلتين، هما: العقل، والشجاعة، وأن الاقتصار على أدنى معيشة ناتجٌ عن تركيب العقل مع العِفَّة، وأن الإيثار ناتج عن تركيب السخاء مع العفة. ومعنى ذلك أنه يرى في مثل هذا البيت من الفضائل أكثر مما رأينا، فهي عنده: العقل، والعفة، والسخاء، والشجاعة. وهذه تكاد تكون

هي أصـــول الفضـــائل التي ينبغي للبشـــر أن يتكاملوا عند معانيها فعلًا وقولًا.

وعلى عموم ما نقرأه في نتاج الشاعر عبدالله باشراحيل في جانبه الإنســـاني فإننا مع كل هاجس من روحانيات ذات الشـــاعر وهي تُرينا جانبًا مهمًّا من جوانب حياته عندما يجعل الشعر هو صلة الوصل مع العالم، وإنما هو الجســـر الذي يربط نبض قلبه بنبض العالم عبر قدرتين لا يصـــنعهما ســـوى تمازج الفعل الروحي والمادي وهما الصلة والتواصل.

فأسمع منه في أكثر من مقامٍ ومجلسٍ وحوارٍ منشورٍ ما معناه: أن الشعر بدون إنسانيته أكوام حجر.. وهذا يتجلَّى حين تُحصـــي عناوين المد الإنســـاني في عالم عبدالله باشـــراحيل فإنك تجد اليد التي تعطي وفي نفس الوقت تكتب قصـيدتها من خلال متلازمتين هما: القول والفعل، حتى لتحســـب أن كتابًا بهذا الحجم مثل (قرابين الوداع) إنما كتب ليكون بئرًا يســـقي العطاشَـــى في حاجتهم إلى جماليات القراءة والحلم، ومتعة أن تكون الحروف خبزًا وأحاســـيس جميلة، ولكن في النهاية تراه يريك رؤى ما يمكن أن يكون المرء بدون إنســانيَّة أو يكون معها، وربما نصـــه الموســـوم (خالدون) ص 66، هو قراءة لنتاج ما

نحصل عليه فيما نقدمه بعطاء ثري كثير أو بشُحِّه، إنه يقرأ الأمر في بلاغته ومجتمعيته ونفسيته، لتكتشف أنه يسعى ليكون خالدًا بما يعتقد أن الخير حين يرتدي عطاء اليد وبهجة القصيدة والحضور القوي بين أمَّة البشر:

نَحْنُ إِنْ مِتْنَا سَنَبْقَى خَالِدِينَ
جَيِّدٌ يَفْنَى وَيَبْقَى الذِّكْرُ حِينْ
كُلُّ هَذَا الْخَلْقِ فِي الْأَرْضِ لَهُمْ
بَعْضُ إِرْثٍ مِنْ جَنَى شَوْكٍ وَتِينْ
يَرِثُ الحَاضِرُ مِنْ مَاضِيهِ مَا
يُرْفَعُ الذِّكْرُ بِه أَوْ مَا يُشِينْ
فِي عُصُورٍ تَتَوَالَى وَالدُّنَا
تَكْتُبُ النَّاعِمَ فِيهَا وَالمَهِينْ
أَيُّهَا العَارِي مِنَ الخَيْرِ وَمِنْ
خُلُقٍ سَامٍ وَمِنْ تَقْوَى وَدِينْ
أَنْتَ مَاذَا سَوفَ تُبقِي لِلْمَدَى؟
حِينَمَا هَدَّمْتَ بُنْيَانَ السِّنِينْ

قصيدة الخالدون ص/ 66/ الديوان.

هذا هو الإنسان كما يقرأه باشراحيل من خلال روحه الشعريَّة وهو ينشد إلينا تفاصيل تأثير الزمن في ذات البشر من خلال الأفعال والمواقف، والجانب الإنساني فيها مهم جدًّا، إنه يصنع لنا مسارات خلود أولئك الذين يُؤسِّسون للأفعال الرائعة، ويُقيمون مَجدهم من خلال ما يُقدمونه للآخرين، ويعتقد باشراحيل -كما في معنى النص (خالدون)- أن التذكُّر هو غاية الدرس الذي علينا أن نتعلَّمه جميعًا، عندما البعض يهدم، فيما الشاعر (باشراحيل) رغبتُه وهاجِسُه وأفعالُه البناءُ دائمًا.

وعلى ضوء ما يحمل (قرابين الوداع) من محطَّات للنداء الإنساني وأفعاله، أقف هنا عند ثقافة هذا التفكير والفعل الإنساني لدى عبدالله صالح باشراحيل، والذي يكون فيه الإنسانُ القِيمَة العليا في كتابه هذا، وهو دائمًا يحضر بعاطفته وعقله وإيمانه إن كان قد نظَمَ الشعر وباحَ به، أو كتب النثر وساحَ به، سياحةً للروح والخلق والإدراك، وتوعيتنا أن الشعريَّة في جانبها الكوني هي رسالة العارف لمن يريدون أن يعرفوا، ونتاجُها هو دعوته لكي نعيش الحياة بقدر الأفعال الصالحة وليس بغيرها، وهذا ما شعرته وأنا أقرأ مقالات للشاعر عبدالله باشراحيل

في كتابه صـدى السـرد وبصـفحة 169 والمقال بعنوان: (عيشوا الحياة):

((فَلْتَقْفِلُوا أَبوَابَ السَّـوَادِ، ولْتَفْتَحُوا نَوافِـذَ لَحَظـاتٍ تَسْبَحُ بِالغَيْمِ عَلَى رَبِيعِ الأَمَلِ، تُمْطِرُ بِالمون عَلَى قُلُوبِكُمْ. انْفُضُـوا ثِيَـابَكُمْ مِنْ أَدْرَانِ الْحُزْنِ، وَغَـالِبُوا النَّفْسَ عَلَى حَمْلِ البَهْجَةِ والسُّرُورِ، أَوْقِدُوا الشُّمُوعَ الضَّاحِكَةَ فِي شِتَاءِ أَعْمَارِكُمْ. احْتَفِلُوا مَعَ العَصَـافِيرِ بِأَعْيَادِ العِشْـقِ، وَانْثُرُوا الأَيَّامَ أَزْهَارًا عَلَى جَدَائِلِ الزَّمَانِ)).

من النصّ مع الانتباه إلى الجملة الشـعريَّة المثيرة: (أَوْقِدُوا الشُّمُوعَ الضَّاحِكَةَ فِي شِتَاءِ أَعْمَارِكُمْ) نكتشفُ أن الشاعر شكلُ رسالته في الحياة واحدٌ إنْ عبَّر عنها شِعرًا أو قالها نثرًا، هو ينظر إلى الكائن البنياني نظرةً وجوديَّة كيانيَّة من أصـل واحد، لكنه الله شـاء أن يُوزّع الأرزاق والأقدار بمشـيئته هو، وهنا الشـاعر يريد أن يقول لنا: إن كانت هناك هُوَّة بين هذا وذلك فعلينا أن نُقرّبها، ببثّ مشاعر الحب والسلام والمحبة، وهي ذاتها المشاعر التي توقد الشموع الضاحكة.

لهذا وأنت تقرأ في تأمُّليَّة القصـائد وكوامِنها يُشـعرك كامن الشعر في روح باشراحيل أنه يعيش كونيَّةَ ما يمكن أن تَشعره الروح في جانبه المضيء وتقدِّمه، تلك المشاعر

الكامنة في ذات بشـريَّة تسـعَى لتكون وتكون، وقد ورث الفعلَ الثقافي والإنساني من تربية البيت، ثم المدرسة، ثم المجتمع، ثم الندوات والملتقيات التي كان يُقدِّم نفسـه فيها كشاعر له الرؤية، وصدى الإنشاد، والحضور القوي. وبدون هاجس الإنسانيَّة وعلاقتها بالحياة سوف لن يكون بمقدور الشـاعر أن يوصـل رسـالته ولا حتى إحسـاسـه وجدوى قصيدته.

هو نفسـه مَن يقدِّمها للعالَم يُعبِّر فيها عن قدرة التمكُّن ليكون شـاعرًا وإنسـانًا، ومتى أمعنتَ في قراءة عالم هذا الشـاعر (باشـراحيل) ودرسـتَه بتأمُّل اكتشـفت أن الخطوة الإنسـانيَّة بأزليتها وبقصـص غرامها وبكفاحها الحضـاري من أجل قِيَم النور والارتقاء هي من تسير عند ضفاف نهر هـذا الـديوان (قرابين الوداع) في سـير حثيث نحو ذُرى مجد تلك البهجة الملونة بإيقاع أناشـيد الروح، والقلب، والقلم، واللسان.

الشـاعر الدكتور عبدالله باشـراحيل لا يوجز لنا ما يسـكنه، بل يُعلن بقوة ويحاول أن يجعل قوافي الكلمات أفعالًا في الحياة لنفسٍ تُغالبه على الخير دائمًا:

وَمَـا أَنَـا إِلَّا مُؤَمِّـلُ العَقْـلِ وَالقِرَى
وَلَوْلَاهُمَـا لَمْ أَبْنِ مَجْـدِي عَلَى الـذُّرَى
وَلِي عِندَ هذَا الدَّهْرِ ســـيبٌ وَبِالنَّدَى
مَـلَأْتُ قُـلُـوبَ الـنَّـاسِ حُـبًّـا بِـلَا مِـرَا
وَهَـمِّـي كَـهَـمِّ الـنَّـاسِ لَـكِـنَّ هِـمَّـتِي
بِهَا مَا يُحِيلُ الصَّـــخْرَ رَوْضًـــا مُنَضَّـــرَا
تُغَـالِبُنِي نَفْسِـــي عَلَى الخَيْرِ فِطْرَةً
وَمَنْ كَـانَ مَفْطُورًا علَى الخَيْرِ أَيْسَـــرَا

قصيدة تُغالِبُني نفسي/ صفحة 78/ الديوان.

هذا الخير تظهره القصـــيدة، ومَن كتبها مقتنع تمامًا أن المعنى حتى في أخيلَتها وضـــرورات البناء في هيكلة القصـــيدة يتوافق تمامًا مع رؤيته في واقع الحياة، فتحاول أن تبوّب العناوين باتجاه ما تريد أن تُؤشِّـــر عليه فكان الجانب الإنساني الهاجسَ الأهمَّ الذي اعتقد أن الأغراض الأخرَى في التراث والعالَم الشعريّ لـ (عبدالله باشراحيل) تتفرَّع وتتجزء منه.

يقول الروائي والشـــاعر الألماني والحائز على جائزة نوبل (هيرمان هيسه):

(دون كلمات أو كتابة أو كتب لم يكن ليوجد شـــيء اسمه تاريخ، ولم يكن ليوجد مبدأ الإنسانيَّة).

أضـــع عبارة هيســـه عند مقتربات الوعي والحافز الإنســـاني الذي تشـــتغل عليه قصـــائد الشـــاعر عبدالله باشـــراحيل؛ لنجدها عبارةً عن مكوِّنات روحيَّة، وأدبيَّة، وفلسـفيَّة، واجتماعيَّة، وأخلاقيَّة، تجتمع في ثقافة الشـاعر وخِصـــاله، وليبرهنها لنا فيما يطرحه كشـــعر وما يمارســـه كواقع في الحياة.

فمبدأ الإنســـانيَّة لدى عبدالله باشـــراحيل ليس هو فقط مبدأ الشـــعر وإتقان حرفة التأليف فيه، بل جعله لصـــيقًا لحياته اليومية، وهنا هو يتفق تمامًا مع تلك الأفعال التي اقترنت شـعريَّتها لتكون وصـلًا بين الإنسـان وما يسـكنه، وهنا قيمة الوصل عند باشراحيل هي قيمة ما يعبر عنه من خلال الروح الإنسانيَّة التي يجدها قيمةً عُليا في خصوصية الشـعر وغرضـه، وأعرف منه أن الشـعر لديه رسـالة في إنســـانيتها وقيمتها الأدبيَّة والاجتماعيَّة، وربما هو منذ شـعوره بامتلاك الموهبة شـعر أن الشـعر يمكن أن يضـعه عند ضـــفاف ما كان يحلم به في قراءته الأولى وانتباه نواظره إلى ما يراه في هذا العالم ويشـــعر أنه قريب إليه، ورويدًا رويدًا تَنشـــأ عنده قناعة وفكرة أن الشـــاعر وُلد

ليُؤسِّس مدائن فضيلة الشعر وبها يسعى لإيجاد المتغيّرات في عالمٍ أولُ مَن يفهم إرهاصات روحه وأمانيه وأحلامه هم الشعراء. وقد أسكنت في البعض انسيابيَّة مراقبة أحوال الخلق حتى وهم في مراتب العز، وربما الشاعر (المتيسر الحالم والناجح في إنجاز الخير في الكثير من الأعمال) لا يتخلى عن إنسانيته وينظر إلى الفقير نظرة روحية وعميقة ومدركة لحاله، وتتعاطف معه تمامًا كما في قصيدة (الفقير) ص 170 التي إذا أتى على رؤيتها تفسير النقد فسوف يراها دفاعًا عن مُستلَب في الحياة حيث كتب له قدره أن يكون هكذا، ومع رؤية النقد نراه نحن في طروحات الهاجس الإنساني عند قصيدة باشراحيل أن نظرته العميقة تجعل الشعر يفسر وقائع قدرية الفقراء وتعاملهم مع الحياة، فكان وصف هذا الحال قد كُتب بلغة عميقة هاجسها النظر إلى الإنسان وحالته التي يشوبها العَوَز أينما يكون، فالنص مُوجَّه إلى فقير في البصرة، أو مراكش، أو الزقازيق، أو عدن، أو حتى في حي الفقراء في بيونس إيرس، وبنغلادش، وبانكوك، وحلب، وأي مكان حيث يوجد البشر، ولا دولة اليوم ترتدي جمهورية أفلاطون، فأحيانًا -كما في خفايا

النص- الفقر هو انكسار الروح قبل الحاجة إلى الخبز أو الدرهم:

فَقِيرٌ يُدَارِي الهَمَّ وَهْوَ كَسِيرٌ
عَلَى أَنَّهُ عَفُّ الْيَدَيْنِ طَهُورُ
يَمُدُّ يَدًا لِلَّهِ لَيْسَ لِغَيْرِهِ
وَلِلرِّزْقِ يَسْعَى وَالنَّوَالُ عَسِيرُ
فَيَرْضَى بِقُوتِ اليَوْمِ مَا هَمُّهُ غَدًا
يَرَى قَانِعًا أَنَّ الْقَلِيلَ كَثِيرُ
يُجَاهِدُ وَالدُّنْيَا حُرُوبٌ لِمِثْلِهِ
وَعَنْ وَجْهِهِ كُلُّ الْحُظُوظِ تُدِيرُ

قصيدة الفقير ص 170/ الديوان.

هذه الرؤية مكتوبة بهاجِسَيْن هما: المساندة، وجعل التعبير عن حالة الإنسان عن طريق الشعر واحدةً من التحليلات النفسيَّة والمجتمعيَّة لبعض أقدار البشر، فالشاعر (عبدالله باشراحيل) يكتب عن تفاصيل حالة روحيَّة وقدريَّة وحياتيَّة، تكتب قدَرًا على أحدهم فيعيش العَوَز، فتراه يرسم لنا كمن يرسم لوحةً استشرافية لحال هذا البائس الذي ينتظر من السماء قبل أن ينتظر من البشر،

وهذا الانتظار تُحوّله رائيَّة الشاعر في قصيدة إلى قراءات لواقعٍ يحاول الشعر أن يُغيّره بقدر ما لرسالة الشعر من مهام إنسانيَّة، لنقرأ عبر النص ورؤيتِهِ تحليلًا مفصَّلًا لواقع الفقر وزمانه، وما يمكن أن تكون عليه حالة الفقير؛ حيث يعيش في ظِلّ كرامة نفسه وعَوَز جيبه.

ويبدو أن رؤية باشراحيل إلى الفقير مرتبطة بالمُقدَّر الإلهي وبعض حظوظ الحياة، لكنه ينظر إليه ليس بنظرة إشفاق، بل بنظرة المُساند والعون وإيصال ملامحه إلى الوجوه الخَيِّرة التي تحب أن تجعل مساعدة الفقراء من أهمِّ أهداف حياتها:

وَمَا حُرِمَ الْإِنْسَانُ أَرْزَاقَ قُوتِهِ
وَإِنَّ الَّذِي يُعْطِي الْعِبَادَ قَدِيرُ
وَأَرْزَاقُ كُلِّ النَّاسِ مَكْفُولَةٌ لَهُمْ
وَلَوْ لَمْ يَكُنْ رَبٌّ لَضَلَّ كَثِيرُ
فَسُبْحَانَ مَنْ أَعْطَى الْخَلَائِقَ سُؤْلَهَا
مَلِيكٌ عَظِيمٌ وَاهِبٌ وَمُجِيرُ

قصيدة الفقير ص/ 170/ الديوان.

عالم الحِسّ الإنساني عند عبدالله باشراحيل توثق القصيدة بأيمان وأمان وتعابير ما تنطقه رسالته في الحياة،

عندما نظلُّ نعتقد ما يَعتقده هو دائمًا بأن الشـــعر بدون الإنســـانيَّة صـــحراء لا ماء فيها ولا زرع ولا حياة. لهذا ستجد في نَصِّه الإنساني سردياتٍ روحانيَّة لشاعر ينظر إلى العالم من جهة النور ويتفاعل معه بشـــتى مشـــاعر الإنسان عندما تختاره الموهبة وقدرية الحلم ليكون صانع الإلهام ومقدَّرًا ليعطي الكلمة وأفعالها الحقيقية؛ حيث يكتب عبدالله باشـــراحيل بعيدًا عن الوهم والخيال المُخادع، ويبدو أن رســـالته قائمة على وجهتين هما: (الإنســـان، وحقيقته) ومنهما تتفرَّع هواجس كثيرة: (الجمال، والحب، والوفاء، والانتماء، والحزن، والقدر، والود، والعمل، والســـفر، والثناء، والحمد، والأناشـــيد الســـماوية المجيدة). وكل تلك المفردات التي تُضـــيء سماء تجربة الشاعر ليست سوى حدائق لضوء الإيمان، والقناعة، والاجتهاد، والموهبة التي تسكن قلب الشاعر، والتي أرادها لتكون مصـــدر إلهامه وهو يبحث عن الحلم الإنساني في طرقات الحياة، ومتى اقترب منها، شرب من أنهر معانيه ومفرداته وجماله، كمن يرتدي عباءة الضـــوء ليُنتج لنا قصيدة:

سَـــعَادَةُ النَّاسِ كُلُّ السَّـــعْدِ فِي ذَاتِي
حَـتَّـى وَإِنْ لَامَ حُـزْنِـي دَمْـعَ مِـرْآتِـي
أُغَـالِـبُ النَّفْسَ كَيْ تُبْـدِي مَبَـاهِجَهَـا
وَالْقَلْـبُ فِي ميعَـةٍ تُخْفِيـهِ مَـأْسَـــاتِي
أَحِسُّ أَنَّ شَـــقَـاءَ الْأَرْضِ مَوْجِـدَتِي
وَأَنَّ كُـلَّ مَـآسِـــي النَّـاسِ مَـأْسَـــاتِي
حِمْـلُ النُّفُوسِ ثَقِيـلُ الْهَمِّ أَحْمِلُـهُ
تَـذُودُ عَـنْ وَجَـعِ الْـمَـوْجُـوعِ غَـايَـاتِي
بِـالشِّـــعْرِ كُنْـتُ أَذُودُ الرِّيحَ عَنْ أَمَمٍ
وَكَـانَ سَـــيْفِي وَدِرْعِي وَانْتِصَـــارَاتِي

قصيدة السعادة/ ص/ 173/ الديوان.

تلك هي رسالة الشعر لدى عبدالله باشراحيل (الشاعر والإنسان) وهو يُعيد لي قَناعةً أُؤمِن بها من أولَى قراءاتي لتأثير الشعر في الحياة الواقعيَّة والروحيَّة للبشر، ليؤكدها هنا ديوان الشاعر عبدالله باشراحيل، وأشعر معه بدهشة تعدُّد نوافذ الرؤية والرؤَى لديه ويستخدم شتى الأغراض بين ما يكون فلسفةً وتأملاتٍ وروحانيَّاتٍ، وبين ما يكون سَهلًا ممتنعًا تسكنه غانية هادئة ممتعة في القراءة، وأخرى

صـــعبة وتأمُّلية، ولكنها تملك المعاني الكبيرة والمثيرة، والتي تؤكد لنا قيمة أن الشعر يَكتُبه الشعراء، حتى يُحقِّقوا ما بمقدورهم تحقيقُه، في محاولتهم لجعل العالم أكثر غموضًا ووضوحًا في الوقت ذاته. وربما خليقة البدء منذ لحظة الهبوط الأول من الفردوس وحتى اليوم لم يتغيَّر شـيئًا من قناعتها ونظرتها إلى الشـاعر، من أنه ماسِـكُ المِهمَاز، ومرآة الفنار، وبوصلة السفينة، ومقبض السيف، وريشـة القلم، ولم يتبدَّل هذا الحال منذ ألواح الطين والأساطير وحتى هواجس عالم (السوشيال ميديا).

هذا الخلود هو مَن أبقَى على صيرورة الشعر كحاجةٍ حضـاريةٍ أبديةٍ لإدامة الحياة على الأرض كما الهواء، والماء، والخبز، ومواعظ الأنبياء والقديسين.

وهو ما يشتغل عليه تمامًا شاعرنا (عبدالله باشراحيل) في سياحته الأرضية بحدائق وقارات ومدن ديوانه، وفي النهاية لن تجد غير الإنسان هو مَن يصنع مُمكِّنات كل هذا الجمال المعنوي واللغوي في قصائده، وأقصد الإنسان الذي يكمُن في أعماق الشاعر ويأتي إلينا بهواجس ومدوَّنات وأحلام إنسانيَّة تشرب من الحياة مطرًا لعَطَشها، وتختار من حدائقها وردةً لقصيدتها، ونجمةً لسمائها، وعاطفةً روحيَّة لإنسانيتها.

تلك الخيارات هي مَن جعلت عبدالله باشـراحيل يكون شاعرًا إنسانيًّا بامتياز.

((فِي لَيْلَاتِ العَتْمَةِ شَمْسٌ
رِحْلَةُ تَرْحِيلِ الدَّهْرِ
إِلَى زَمَنٍ
أَسْبَقَ مِنْ نُورِ الفَجْرِ
نَنْظُرُهُمْ فِي حُلَلِ السَّعْدِ
وَتَلْقَاهُمْ قَدْ صَنَعُوا الْمَجْدَ
فَالطَّلْعُ سَيُورِقُ
إِنْ أَحْسَنَ مَوْلَاهُ الْغَرْسُ))

قصيدة لغة العصر/ ص 280/ الديوان.

الفصل الرابع

الشاعر عبدالله باشراحيل ضوء العالمية في عطر ديوانه الجديد

يَـا غَـرِيـبَ الـدِّيَـارِ بُحْ لِـلمنَـافِي
واسْـــأَلِ الظِّـلَّ عَنْ قُرَاكَ المُبَـاعَـةْ؟
السِّـــنِيـنُ الـعِـجَـافُ كَـمْ تَـتـهَـادَى
فَـاطْعَمِ الجُوعَ وَالْتَجِئْ بِـالشَّـــفَـاعَـةْ
سَـــلْ أَمَـانِيـكَ مَـرَّةً بـعْـدَ أُخْـرَى
أَلِـحَـيٍّ لَـديْـكَ تُـجْـدِي الـقَـنَـاعَـةْ؟

عبدالله باشراحيل في قصيدة غربة.

4

في الشعر يكون الشاعر هو من يُطلق رؤياه إلى الفضاء الأبعد، ولا تحدُّه في الرؤَى الحدود، إنه مجد الكوامن فيما يريد أن يقوله، وكل الأقوال هي صدى لسان الروح، وإنك عندما تقرأ شاعرًا لا يريد أن تبقَى خطوته في ذات المكان ستُدرك أنه يريد جهةَ الريح والضوء عبر مجد أَشرعةِ السفن لألف سندباد، وأن شهرزاد إن أرادت لحكاياتها مطرًا تستعيرها من قصائده لترتوِيَ بها.

شعرية الشاعر هي الخَلْق المُبدع والابتكار واللغة التي لها رائحة الأزهار، هذه الرائحة التي تتشكَّل مع دهشة التأليف والتنويع وحداثة اللغة والتصاوير الشعرية؛ لتُشكِّل عنوانًا مَهيبًا لوجود الشاعر ومكانته، ولتذهب به من مهد النشوء إلى المكان الذي تحتفي فيه الأقلام ومدائح الضوء وبهجة العناوين، فيشعر أنه يُقدم قرابينَه إلى كل البشرية إهداءً سحريًّا من روحه الوهَّاجة وقدريته التي تأنَس لها بهجة اللغات، عندما تتمنَّى تراجمه لتكون صدى الكلمات التي تُعبِّر عنها الخلجات التي كوَّنت فضاءات التأمُّلات التي استطاع فيها الشاعر أن يرسم لملامحه الصورةَ الغامضةَ التي على الآخرين أن يجدوا المتعة في فَكِّ

طلاسِـمها. والرؤية هنا تُقاس ليس كمديح يُمجِّد حضـور الأشـياء وهواجسـها، بل دراسـة واسـتقصـاء لرُؤَى الشـاعر الذي يشعر أنه يصنع من ضوء الشمس ثيابًا لآلهة الشعر، إغريقيةً كانت أو بابليةً أو فينيقيةً أو فرعونيةً، أو من آلهة أساطير صحراء نجد، أو ليل صنعاء قبل أن يجيء الإسلام ويلغي رؤى التعدُّد. لكن الآلهة ذهبت وبقي الشاعر شُعلةَ الضوءِ في طُرقات العالم، وأحسبه في صورة هذا العصر.

وأنا أقرأ في قصـائد ديوان الشـاعر السـعودي عبدالله باشـراحيل الأخير (قرابين الوداع) والصـادر من دار كتابي للطباعة والنشـر والتوزيع في القاهرة، والذي يُشـعرك في بدء القراءات أنه يكتب بذائقةٍ روحيةٍ تتعدَّد فيها الألوان ومسـارات الرؤية؛ حيث يخرج من مِعطف المكان الذي يأخذ منه مُمكِّنات الموضـوع ومسـمياتها، ثم يُؤطِّرها بـالحِس الآخر ويـدفعهـا من مَحلِّيَّتهـا إلى آفـاق أبعـد، مسـتخدمًا هاجس الروح الأوسـع الذي يمكن لأي قارئ أن يتحسَّسـه، حتى في مآثر الرثاء تراه يذهب بدمعته عند خرائط الحزن المتسـع في أصـداء وأرجاء العالم، حتى وهو يرثي رحيل والدته.

فتشـعر أن حزن الشـاعر يذهب معنا عند خرائط الروح في ممكِّنات تحوّلها من دمعة إلى كلمات تصـبغ جدران

ذاكرة البَوح وتجعلك تشعر أن شاعرًا مثل باشراحيل إنما يستطيع أن يوقظ أدوات الحلم والرؤى واستعادة الزمن في صورة نعش يذهب بحياة أغلى ما يملك، والبديل هنا هو قدرة الشاعر على مَنحِنا الكلمات الغالية أيضًا التي جعلها الهايكو الياباني تمسك الخلود بتلك الصورة المضيئة:

عندَما الأمُّ هُناكَ في السَّماءِ
النُّجُومُ تَنزِلُ لتَتَبضَّعَ سِلالَ وَردٍ
لحَفلِ تأْبِينِها المَسائِيّ.

ويبدو أنَّ شاعرًا يعيش فِطنَة موضوعاته مثل عبدالله باشراحيل يذهب إلى أكثر مدى من ومضة الهايكو؛ فيُحوِّل حزن الرحيل إلى صدَى أوبرا الأحاسيس، وكلمات فخامة الحزن الذي يسكن قلبَه، ويبدو أن قرابين الوداع تقف معه، ويتحدث من خلالها بلغة مرئية يُكسِبها ضوءَ الموهبةِ والإلهام إحساسُ الشاعر بكميَّة الحزن التي تتحوَّل في عيون قُرَّائه إلى سعادات تتشظَّى برُؤَى عباراتٍ ينحتها الشاعر من ذهب وضوء في قلوبنا التي تنحب معه، ونحن ندرك أن الذي يكتب ليس فخامة للغة القصيدة وإنما هو يحسن التبجيل وكتابة أساطير الحزن الذي لم يُفقِده من توازن الموهبة بشيء؛ لأن الموهبة هي هبة

سـماوية تُعطَى لمن لديه الاسـتعداد ليكون واضـحًا وشجاعًا ومؤلفًا.

بين الهايكو ومراثي باشراحيل هو صدى الثراء الحِسي الذي يُحوِّل الحزنَ إلى كلمات ويضـع بريق الشـعر في مصـافِّ اللحظة التي ننتظر فيها وضـوح المعنى؛ لنعيش بهجة الكشـوفات الروحية ونتعلَّم منها، ونُدرك تَفاوُت الحِسِّ بين الشـاعر والإنسـان البسـيط، ولهذا ففي كتابه الأخير (قرابين الوداع) أصـداء كثيرة لمُمكِّنات وإيماءات وأيقونات ومُبهجات تُؤسطِر حسَّ الشاعر في رغبته ليكون في مصـافِّ مَن يُبقون في مرايا أحداقهم الوجوهَ التي يشـتاقون إليها مُشـعَّة في مُدن قلوبهم كما تُضـاء شـعلة أولمب في قلب أثينا.

فتشـعر أن سـقراط ربما سـألوه عن مكانة أمِّه، فردَّ عليهم: إنها الفلسفة. وفي ذات التصوُّر مَن يقرأ وجه الأم المباركة في كلمات الشاعر (باشراحيل) وفي أي مكان أو ملتقى أدب أو صـالون في هذا العالم يدرك أن قيمة ما يشـعره الشـاعر هو مبتغَى الذات التي لا تفتخر بموهبةِ الأداء لـديهـا فقط، بـل تتمنَّى أن تُبحِر بعيـدًا مع موج الكلمات التي تصـنعها الأحاسـيس الكونيَّة لتذهب بذات الإحسـاس والمعنى إلى أي مكان في العالم. حتى إنكَ

تشـــعر أن عالم عبدالله باشـــراحيل هو عالم المرئيات والضـوئيات وصـدى الأشـياء البرَّاقة في بهجة ما يريد أن يُريَه الشـــاعر لنا في كتابه هذا (قرابين الوداع) وفي كل إنجازاته التي قبل هذا الكتاب.

هو يُدرك أن اللغةَ جوادُ الفارس في رحلته العظيمة في دروب الحياة، ومن ثَم تراه يســـتلم من محطات رحلته الـدروس والعِبَر ويعكســـهـا على تلـك المراثي الجليلـة ومدائحَ الحسِّ الروحي الذي يتماثل مع القراءات ليتحوَّل إلى مصـــائر، وحقائق، وذكريات، وانعطافات، ولحظات نشوء ناعمة وغنائية بصفاء ما تلهج به وتشتعل بحنانٍ لديه حتى قالوا قديمًا في المجتمع السـومري: الشـاعر مَن يرى من هنا أبعد من ظلال النخيل هناك.

وعبدالله باشـــراحيل يرى الأبعد، إيقاعات الســـحر التي تتعامل مع وعي الشـــاعر وموهبته، وصـــدَى الحِسِّ الذي صـنع منه الشـعراء والملاحم ومقدمات الأسـاطير ومفاخر أممهم وبلدانهم.

صورة الأم عند باشراحيل هي صورةُ القصيدة في دِفء إيقاعها وكأنها تهبط مع نـدى الورد لتصـــنع لنا حـدائق التأمُّل وتُعلِّمنا كيف نعيش متعةَ القراءة وفَهم البَوح عندما يكون جميلًا وروحـانيًـا ويمتلـك المعنى بعيـدًا عن تلـك

المُعضلة التي تقول: كلما اتسعت الرؤية ضاقت العبارة، فيما التجربة الشعرية لشاعر مثل عبدالله باشراحيل تتسع لديه الرؤية والعبارة معًا، ويستطيع الشاعر أن يوصل صدى ملاحمه وإرهاصاته وكأنه يعبر حدود الثقافة إلى حدود الفِكر والرؤى ويمد بينهما جسورَ الفهم الذي حين تقرؤه في قصيدة باشراحيل تفهم تمامًا لماذا يولد الشعراء الحقيقيون الذين يُمسكون المبادرة في جعل الكلمات صهيلًا لحروب أمجادهم، وأنهُرًا من دموع العطر لنعوش مَن يفقدون وهم قريبون إلى القلب، يُسمِعونك صدَى ما يكتبون، وأنا أُدرك تمامًا أن الشاعر الحقيقيَّ هو مَن يكتب بوعي روحه وقلبه وثقافته وموهبته. هذه الرباعيَّة هي ما يمكن أن تكون الجسر الحقيقي بين الشاعر وأي مُتذوِّق للشعر في أي مكان من العالم..

عالم عبدالله باشراحيل هو عالم المَدَيات التي تُعلن رؤيتها من خلال توهُّج الكلمات، والحديثُ الآن عن الشاعر حين يكيل مديح النفس إلى الظل الأقرب إليه، وتكون والدتُه هي صورة الذات التي تستحق كل تلك المدائح المتشكِّلة بثنائية الحب وعاطفة الشعر بين قلب الشاعر وقلب أمه لنراه في قصيدة أمي ص 28 من الديوان:

يَـا مَـنْ حَـفِـظْـتِ اللهَ قُـرْآنًـا كَـمَـا
كُـنـتِ الـحَـفِـيـظَـةَ لِـلـمَـكَـارِمِ وَالـذِّمَـمْ
(مِصْـــبـاحُ) وَجْـهِـكِ أَيْنَمَـا وَجَّهْتُـهُ
بَـدْرٌ تَضَـــاوَى تَسْـــتَنِيرُ بِـهِ الظُّلَمْ
وَلِطُهرِكِ الوَضَّـــاءِ إِجْلَالُ السَّـــمَـا
بِخَلَائِقِ الـدِّينِ الحَنِيفِ قَـدِ ارْتَسَـــمْ
هِيَ مَن تَغَشَّـــاهَـا العَفَـافُ تَمَثَّلَـتْ
طُهْرَ الـمَلَائِـكِ سَـــبَّحَـتْ رَبَّ الْأُمَمْ

هذه هي الأمُّ في أوَّل أناشـيد مدائح القريبين من ذاكرة الشـــاعر في ديوان (قرابين الوداع)، وهو نَشـــيدٌ يُعيد ما يَسـكن الشـاعرَ من رغبةٍ ليكون وفيًّا لما أيقظ فيه شُـعلة الحياة، وكأن نداءه لروح أمه هو نداء الخلود في تلك المُهَج السـاكنة بين الكلمات أديمًا لا يظمأ إلى ماءٍ؛ لأن الشاعر هنا وفي كل أحاديثه عن أمه يجعل الكلمات مطرًا وينجح في إبقاء صلة المودَّة بين ضوء ذكرياتها وشمس هذا الحاضر/ قصيدة أمي/ ص 28:

لَا شَـــيْءَ غَيْرُ اللهِ يُغْرِيهَـا وَقَـدْ
حَفِظَـتْ كِتَـابَ اللهِ وَهْوَ الْمُعْتَصَـــمْ

أُمَّـاهُ يَـا قَـلْـبَ الـحَنَـانِ يَـحُـوطُنَـا

يَـجْـزِيـكِ رَبُّ النَّـاسِ مِـنْ خَـيْرِ النِّعَـمْ

إذَنْ هي مدائحُ الشّعر تَنقاد من لغة الأناشيد في محاولة الشـــاعر لإلصـــاق ذاتِه بالذات الجليلة لروح الأم، وهو يناديها عَبر صِـــلةِ الحياة بالقصـــيدةِ ويُلبِســـها نورَ عافيةِ حضُـــورها الدائمِ حتى وهي تترجَّل خطوةَ الرحيل إلى خالِقِها وقدِ ارتدَتْ عَباءةَ الوفاءِ التي جلَبَها ضـوءُ القصـائد وخاطَها صـوتُ الشـاعر وتلك اللغة المَسـكونة بصـدَى ما يأتي به الكامن في روح الرجل الذي تعوَّد أن يمضـي إلى جهة الضـوء من خلال صـهوة غيمة الشـعر واتقاد الحس ونضوج الموهبة.

هـذا الكتـاب كمـا وثـائق الانتمـاء إلى مَكـامِن أحلامنا مكتوبةً بحِبرٍ خاصٍّ صـــنعته موهبة الشـــعر فقط وتجارب الحيـاة، ومن أجـل هـذه المـدائح وهي تحمـل غنـائيـات روحية خاصـة وخالصـة، ولتعيش لحظتها سـاميةً وخالدةً بيننا، وقد طرزت على مائدة الشـــعر هذا النوراني الكامن في الذات المتأمِّلة لحركة العالم، لهذا هو يشملها بعناوين كثيرة وأغلبها تبني مُدنًا ومعابدَ وحدائقَ من وفاء الشـــاعر لمن ولَدَتْه وأنضـجت فيه ثمرة التحوُّلات من السـاكن إلى

المتحرك، والإضـــاءات والعنـاوين الكثيرة في ديوانـه الشـــعري (قرابين الوداع) تُثبت لنا قيمة أن تتعدَّد مهام الشاعر وهواجسه في قراءة العالم بشتَّى الرؤى والتأمُّلات والبَوح والمدائح.

روحـانيـاتٌ، ومُشـــاهَـدات، وأدعيـة، وكشـــوفـات، وغزليات، ومَراثٍ، ونوافذ أخرى جعلت الشـــاعر (عبدالله باشـــراحيل) يُديم هاجسًـــا عبر تكوينات نراها ولا نراها، وهو يعيد هنا صـــناعة مفهوم الانتماء إلى الذات الأخرى، وقد تكون والدة الشـاعر تمتلك مشـابهات المشـاعر كما في كل التراث الحضـــاري للبشـــر منذ عهد الأم الأولى (حواء) وحتى اليوم، حيث يعتقد الشـــاعر الحكيم أن الأمَّ في حضـــورها في الحياة والموت هي إضـــاءات المعنَى والاشـــتياق، والحاجةُ إليها باقية أينما تكون؛ لهذا حين اعتلت منصـة الرحيل إلى العلا فجَّرت مشـاعر الحزن في معارج اللغة، وفتحت قريحةُ الاشتياق إليها بواباتِ الشعر؛ لتشـعر مع فقدانها أن الشـاعر أسـكنها في مدونته الكبيرة (قرابين الوداع) مكـانة الأريكـة ومكـانهـا في جهـة محـددة من السـماء، وفي نظرة أفق الشـاعر هي وأبوه، وتصـبح صـورة الأم والأب هي صـورة خلق الشـعر، لما يريد أن يريه لنا من أحاســيس الشـــاعر ورغبته بإرجاع ما كان

ويكون وسيكون، وليجعل وجه الأم حتى في نشيد الرثاء حياةً مسكونةً بمديح الكلمات وأدعية أزل التقدير وحناجر تلاوة قداســـات الاحتفاء بتلك الروح في مرثية يكتبها الشـــاعر لتُوجع فينا نبض اللغة، وتســـير في مرايا أحداقنا دمعة تمطر من ســماء قصـيدته، وجلســت بين أوراق هذا الديوان ونحن نتأمُّلها وربما سننحب مثله.

وها هو يَرثيها في رحيل الأزل، فيرســـم لها شِـــعريَّته الكونية؛ ليَشعر أنها حدث عالمي في حُزن الشاعر، عندما يكون كاهن هيبة الكلمات وعرَّابَ صـناعة المدائح للبشـر الذين يراهم يقتربون من نبضـــه وفلســـفته وموهبته وما يســـكنه، وهي حتمًا إرهاصـــات صـــادقة حتى مع حُزنها العظيم لأن الرثاء في الشعر هو أول الدوافع الروحية التي ابتدأت أناشـيدها في التاريخ الشـعري وأسـاطيره، كما في رثـاء جلجـامش لخِلّـه أنكيـدو، والرثـاءات التي دوَّنهـا هوميروس من أجل ضـــحايا حرب طروادة، والقصـــص الحزينة التي جعلت رثاء الشعراء من أجل أمهاتهم سجلًّا سـحريًّا في تاريخ البشـرية منذ اكتشـاف الكتابة في أوروك التي ســـجَّلت في أول موضـــوعاتها الحنان المتبادَل بين الأمهات وأبنائهن، ويَحضـــرني قبل أن أقف عند ضـــفاف نهر دموع باشراحيل على فقدانه لحضور الأم في قلبه عند

غيابها أن أعيد شيئًا من أساطير حزن الشعراء في بلاغة صورة الحزن كما عند أبي العتاهية في فقدان أُمّه:

عَلَيْكِ سَلَامُ اللهِ يَا أُمّيَ الَّتِي
بَكَتْكِ رِجَالٌ وَالنِّسَاءُ العَوَاطِفُ
رَحَلْتِ وَفِي صَدْرِي أَزِيزُ مَرَاجِلٍ
وَبُرْكَانُ أَوْجَاعٍ مِنَ الْبَيْنِ جَارِفُ

ومثل أبي العتاهية يُرينا الشاعر عبدالله باشراحيل مَثاباتٍ تتشابَه تمامًا مع حُزن الشعراء الكبار عندما يفقدون بعض مودَّة أزمنتهم، وربما الأمهات الأهم في تواريخ تلك المودة، والتي سكنتها بعطش الروح تهدُّجات الصوت الحزين الذي وضع له منصة للرثاء الحزين في أكثر من مكان في الديوان.

وربما رثاء الشاعر يرينا أن الشعر ابتدأه النواح البشري الأول في وقيعة قابيل وهابيل، ويُقال: إن إنسان الكهوف الأول هو مَن اكتشف الشعر في لحظة بكاء، ويُقال: إن الوزن الأول في شعرية تلك المراثي انتبه إليه الإنسان الأول من خلال تغريدة الطيور في حزنها يوم تأتي عاصفة وتهدم أعشاشها أو تفقد واحدًا من أطيارها الصغار بحجر مرمي من صياد.

باشراحيل في مرثيَّة حُزنه يُرينا حسًّا كونيًّا لم يعُد يتأطَّر في ثقافة بلاده وتراثها الأدبي، بل إنه مسكون بتحوُّلات الروح عبر ما يُبكِيه ويُحزن قارئه، ولا أدري وأنا أدرس تلك الكونية في نتاج باشراحيل لماذا اخترت قصائده لأمه (رحمها الله) لتكون نافذة متابعة التحوُّلات الإبداعية في تجربة شاعر كبير مثل عبدالله باشراحيل.

وها هو عند قارَّات الحزن يصل إلى ما يصل إليه الشعراء الأوائل من تحويل انكساراتهم إلى مرايا من سِحر عاطفة الوجدان والكلمات وضوء ما يهطل تحت الأجفان ليصبح نداءات لحاجة الروح إلى روح أخرى تفتقدها. وكان قبل الفَقْد يطلب بتضرُّع إنشادي موجِع عافيةَ الحياة المستدامة بعد معاناتها مع محنة المرض لنراه في قصيدة (يَا رَبِّ عَافِ أمي) ص/ 234 من الديوان:

فِدَاكِ قَلْبِي وَدَمِي يَا جَنَّةَ الحُبِّ أُمِّي
مِصْبَاحُنَا فِي اللَّيَالِي وَمُجْتَلَى كُلِّ غَمِّ
(مِصْبَاحُ) صُبحٍ صَبُوحٍ يُزِيلُ حُزْنِي وَهَمِّي
لَا رَاعَنَا اللهُ فِيكِ وَقَاكِ مِنْ كُلِّ سُقْمِ

هذه المُناجاة في قلب الشاعر تُشبه الأدعية، ولكنها أدعية بصَدَى الوجدان والعاطفة والأحاسيس الروحانية

التي تجعل من نداءات التضـــرُّع إلى الله جســـورًا لرغبة المُشافاة للمرأة التي هي عظيمة بيت الراحل محمد صالح باشـــراحيل، ولكن تحوُّلات تلك الأدعية المُتضـــرِّعة بكونيَّتها وهي تتمنَّى من السـماء اسـتجابةً تصـطدم لاحقًا بمراثي الرحيل لترتقي روح الأم، ويقرأ على مســـامعنا، وأينما نكون رثاءات حزنه وصـــدَى الألم الذي يوقِعُه هذا الموت الحنون لســـيدة المنزل، لتهبط عليها ابتهالات يوجزها الشـــاعر برثائية على الرغم من قلة أبياتها إلا أنها عميقة جدًّا في إيضـــاح المعاني وتِبيان حقيقة أن الشـــاعر الكبير حتى في حزنه ســـيكون كبيرًا، وهو يهطل علينا بمدامعه وأحزانه في لغة أناشيد الحزن والألم واللغة التي تســـقط أمطارها على أرض الذكريات ليتورَّد في حدائقنا زهر الحزن الـذي عطَّره رِثـاء الكلمـات وقـدرتهـا على الوصول إلى قلوبنا.

وهكـذا في أول الرؤيـة عن عـالم الكتـاب الشـــعري (قرابين الوداع) للشـــاعر عبدالله باشـــراحيل نعيش مُتعةَ أن تكون رسـالة الشـاعر الحقيقي هي رسـالة الآفاق المفتوحة صوب الرؤية والسُّدُم البعيدة في سماوات الإبداع لنعيش تلك المَدَيَات الرحيَّة لهاجس الكلمة وصـــيرورتها في تأسيس بانوراما وجدانيَّة وشعريَّة تُرينا تجربةً ثريةً وعميقةً،

ونشـــاهد فيها تلك الألفةَ الجميلةَ بين مُدُن الإلهام ومدن الأحلام في قلب الشاعر وهي تكفي لتُسجِّل فيضَ أساطير رؤاه؛ ليُبحر بها كما ســندباد إلى أمكنة وأزمنة ومنصَّــات احتفاءٍ بروحٍ تلك قدريتها وحزنها وأزلِيَّتها حتى عندما تفقد الظلال القريبة منها.

عالَم باشـــراحيل هو عالَم من متغيّرات البَوح في تنوُّع المتغيرات والأمكنة، وهو يترجَّل عن صهوةِ الريح بخيولِ أحلامه وممكِّناته العميقة، وبِلُغته الثرية وصـــورها البارعة في جماليَّة إحساسها، كما ظهرت جليَّة في قصائد الديوان (قرابين الوداع). وأردنا أن تكون الرثاءات وصـــورة الأم نـافـذةً للـذهـاب إلى الأمكنـة الأبعـد في قـارات كتـابـه الشعري.

وخلاصــة رؤية الحزن في عالَم عبدالله باشــراحيل هو في أغلبه يأتي من فقدان القريبين والذين يحبهم، ولكن تلك الرؤية هي جزء من فَهم كَوني منح الشـــعراء أزلية المناجاة وأصـــبحت الرثاءات لغةً جماليَّة يُردِّدها شـــعراء تلك العصـــور، لتصـــبح متلازمة للمَسَّـــلات، ومدوَّنات الألواح، وهاجس المعلقات والملاحم الطوال.

الفصل الخامس

قرابين الوداع وقرابين الحب
رسالة الشاعر في أزليته

((يَقْفُوهَا الفَطِنُ، ويَهْتَدِي إلَيْهَا الذَّكِيُّ، فأَوَّلُهَا إِدْمَانُ النَّظَرِ، وَالْعَيْنُ بَابُ النَّفْسِ الشَّارِعُ، وَهِيَ الْمُنَقِّبَةُ عَنْ سَرَائِرِهَا، وَالْمُعَبِّرَةُ لِضَمَائِرِهَا، وَالْمُعْرِبَةُ عَنْ بَوَاطِنِهَا. فَتَرَى النَّاظِرَ لَا يَطْرُفُ، يَتَنَقَّلُ بِتَنَقُّلِ الْمَحْبُوبِ وَيَنْزَوِي بِانْزِوَائِهِ، وَيَمِيلُ حَيْثُ مَالَ، كَالْحِرْبَاءِ مَعَ الشَّمْسِ.))

تعريف مشاعر الحب لابن حزم في طوق الحمامة.

5

قرأتُ الشاعِرَ عبدالله باشراحيل في أمكِنَة مدنها دواوينه وكتبه، وأغلبُ ما تَرتوي إليه القراءة في مدوَّنات هذا الشاعر المُثابر ليكون في قصيدتِه كاهنًا لروحانيات عطر وردة الحياة، وشِراعًا لرحَّالةٍ يجوب العالَم بتفاصيل ليل أحلامه ورسالته الوُجوديَّة المؤمنة بأطياف العلا، من أن الوجود هو صنيعة العلا السماويَّة وأن الاقتراب من ماهيته يكون جميلًا مع الحب والقصيدة.

قرأته وأنا أدوِّن ملاحظةً قديمةً في أول انطباع نَقدِي عنه هو أن شاعرًا مثل عبدالله باشراحيل قد يكون النقد الجماليُّ لم يُعطِه حقَّه تمامًا، وكل هذا هو صنيعة وعي وظاهرة جمالية تُضيء أنوار الروح هي الحب.

من وعيٍ كهذا بَقِيتُ فيما ملكتُ من وعي في مرحلة عُمريَّة مُتقدِّمة أتصور أن الخيال لن ينطق إلا عندما يتَّكِئ على فلسفةٍ وقربت بتصوري من عالم باشراحيل الشعري هو رغبتي بأن أكتشف لحظة التوهُّج من خلال عُزلة وإغماضة جفنٍ كي أحصل على المُنى في حلم الشاعر ليؤسس مدائنه مع إيقاع نبض قلبه، فتساءلت: وكيف يحصل البوذي عليها؟! فكان الرد: إنَّ مجرَّد قراءة مدوَّنةٍ

لتعاليم بوذا مثلًا لا تفعل شـــيئًا، عليك أن ترتدي الثوب، وتذهب إلى الغابة بنفسِـــكَ، وتعيشَ ثلث عمرك تمضُـــغ ورق الشـــاي الأخضـــر، وتنتبه إلى خرير ماء النبع القريب منك، وفي الليل تتأمَّل ما في الســـماء من موجوداتٍ، وتتعلم مصافحة النجوم.

لكن عبدالله باشـراحيل لا يُشـبِه رؤية التأمُّل البوذية، بل يشـــبه رؤيته الإيمانيَّة في تفاصـــيل تركيب قلبه في نبض استشعاري يقول: إن القصيدة مع الله تُصبح حبًّا وإنسانيَّةً وسفرًا إلى مواطن النور.

فكان الحب بهجتَه ولهجتَه وركنًا من أركان نظرته إلى العالم، وقد جعل قلبَه لســـان حال القصـــيدة، فبوذا يرى ويشـــعر، وباشـــراحيل هنا يرى ويشـــعر ويكتب، تلك الشفافية الناعمة التي تنساب مثل قطرات المطر على مرايا أرواحنا:

سَـــقَتْكِ الْغَوَادِي لَا سَـــقَتْكِ النَّوَازِلُ

وَأَصْـــفَـــاكِ عُـمْـرٌ وَاقْـتَـرَتْـكِ الـنَّـوَائِـلُ

لَدَى رَوْضِكِ الْمِعْشَابِ يَهْتَاجُ خَافِقِي

مَشُـــوقًـا وَكَمْ تُطْوَى إِلَيْـكِ الْمَرَاحِـلُ

مُنَى أَنْتِ لِي كَالنُّورِ وَهْوَ مُضَـــاحِكِي
تَجَلَّتْ بِـهِ كَـالشَّـــمْسِ وَهْيِ شَـــوَاعِلُ
أَمَـانٌ لِـرُوحِـي أَنْ تَـرَاكِ حَـبِـيـبَـتِـي
تَطُوفُ عَلَى مَغْنَـاكِ تَشْـــدُو الْبَلَابِـلُ

قصيدة القلب الجريح/ ص/ 29/ الديوان.

هذه نشـوى الحب في برَائتِه وعميق إحسـاسـه في قلب شـــاعرٍ تكاد تكون قصـــيدتُه المرهفة أبجديَّة لرُؤَى الحب في طرقات حياة قُرَّائه ومُحبّيه وأهل بيته. وفي كل انطباع استقرائي حول مضـامين باشـراحيل الشـعرية تجد الحب، مثل خيط الحرير الذهبي يربط بِنية القصـــائد وهياكِلَها، ومهما كان الغرض من بَوح القصيدة وكتابتها يكون الحب بعضًـا من أسـاسـيات بِنيتها ومعانيها التي يكاد الحب أن يكون صيرورتها وأبحر الهيام فيها. وعناوين القصائد هي مـا جعلهـا الشـــاعر لتكون طوق نجـاة، وطوق حمـامـة، وطوق حلم.

لحظَتَها يتوحَّد الضـوء مع الزاوية التي ننظر من خلالها إلى العالم، وأقف عند حدود استشـراف اللحظة، فأُصـاب بتِيهٍ ما أنا أردتُ كشفَه في استلهام مُفردة الحب في عوالم بـاشـــراحيـل الشـــعريـة وهيمنتهـا على مـدارك الروح

وأحاسيسها في التعاملات الحياتيَّة أجمعها حتى يصل هذا الحب ليكون جدلًا حياتيًّا يسير معه في كل محطات حياته ودواوينها الشعرية:

((كَمْ جَادَلْتُ فِي الحُبِّ
مَنْ مِنَّا يَكُونُ هَوَاهُ أَكْبَرْ
قَلْبِي وَقَلْبُكِ
أَيُّ قَلْبَيْنَا صَبَا وَأَحَبَّ أَكْثَرْ))

قصيدة من يحب أكثر/ 38/ الديوان.

هذا نور الحب المُدرِك لوعي الكلمة، والتي يتداخل معها إحساسنا بالشجن والشوق وخياطة بخيط النور تفاصيل الثوب؛ فيأخذنا التيه اللذيذ إلى مَدَيات خضر تتراوح بين تخيُّل مَراعي الطفولة وبين هواجس الصِّبَا وشباب العشق العذري الذي لغته العيون وأسرار القلب وأغاني المذياع والخواطر السرية فيما يتبقى من أوراق بيضاء من دفاتر المدرسة، لنشعر كما أشعره في شعور الشاعر (باشراحيل) أن العالم يشعر كله مع الشاعر حين يكون موضوع قصيدته حبًّا، هذا العالم الذي يمتد إلى ما لا نهاية، هو حديقتنا التي نتأمَّل منها، ونطل من خلالها على سُدُم الكون الذي فينا وخارجنا؛ لنجد ما لم يجده

الآخرون من ماسكي لذة المال وسذاجة أن نعيش اليوم على حافة بطاقة اليانصيب...

كل هذا يأتي من جنون الرمش في تأملاته الهادئة والصاخبة، وحتى هو جنون أطياف خيالات بَوح لروحٍ تحبُّ، وتشعر أن الشاعر وقت كتابته لقصيدته وهو يمشي بخطوات الضوء المسرعة إلى متن المدوَّنة التي تريد فيها أن تكتشف العالم عبر طوق حمامة، أو رسائل العاشقين، ونحيب قيس على ليلاه، أو حتى أناشيد عمر بن ربيعة، وكأن باشراحيل في قصائده يشعرها قد طارت في فضاء الحلم واكتشفت عصرًا سحريًّا متقلبًا، لكن عالمه رؤية القصيدة في مودة لحظة تأليفها لتكون قارَّة من الحب خاليةً من الزيف والحروب:

"التِّكْنُولُوجْيَا" الَّتِي سَادَتْ مَدَائِنَنَا
حَضَارَةٌ لَيْتَهَا بِالسِّلْمِ تَعْتَصِمُ
سِوَى سِلَاحِ الرَّدَى لَا شَيْءَ يُقْلِقُنَا
هَوَى الضَّحَايَا وَأَيْدِي الْبَغْيِ تَجْتَرِمُ
مَا أَجْمَلَ الْعَيْشَ إِنْ قَرَّتْ بَلَابِلُهُ
وَأَنْكَدَ الْعُمْرَ إِنْ أَضْرَى بِهِ الْأَلَمُ

مَنْ يَصْنَعِ الْحُبَّ حَتْمًا سَوْفَ يَحْصُدُهُ

وَمَنْ عَلَى الظُّلْمِ حَيٌّ سَـــوْفَ يَنْظَلِمُ

تَحْلُو الْحَيَاةُ إِذَا مَا الْخَيْرُ صَـــاحَبَهَا

مَنْ يَزْرَعِ الْخَيْرَ فِي الـدُّنْيَـا سَـــيَغْتَنِمُ

قصيدة تصنيع الحب ص/ 106/ الديوان.

وهكذا نكتشف أن رؤية الحبِّ لديه هي محاولة لتغيير عاطفة النفس البشريَّة نحو جهة الضوء والأمان والسعادة والراحة والاحتفاء برؤية البعيد الذي نتمنَّى رؤيته، وهي الرؤية أيضًـــا تصـــنع متعة المشـــاركة بلحظة تقرير حالِ متلبِّسها أنه ارتداها حتى يسكنه الحب في كامل جغرافيتَيْ روحه وجسده، ولهذا يقال عنها: إنها واحدة من الطقوس الضـوئية التي يغمرنا فيها ضـوء عزلة المكان بضـوضـاء الزمن؛ فنحصـــل على ما نريد من خلال تشـــييد رغبة لا نفتعلها، بل نتمنَّاها، وبعد ذلك نســـعى إلى صـــناعتها، وعندما يكتمل نرى الغياب مرســـومًا تحت أجفان لحظة باشـــراحيل في كتاب قصـــيدته، حيث تتحرك موجودات المكـان كلهـا في حين تقف أزمنتُـه في بؤرةٍ من التركيز على شيء لا يراه سواه، وبهذا تكون القدرة على الكشف

قدرة موجودة، ولكنها مصـــنوعة بمعجزة الحب وإرادته وأفعاله.

يسـعَى الشـاعر بموهبته الكبيرة إلى كشـف ماهية غاية الشـعر يفعل ذلك أيضًـا، يحاول صـانع المُخيِّلة أن يلفَّ الاثنين ببُردة واحدة، وعندما يفعل يأتي مخاض المزج بين ما يراه الشـاعر وما يحسـه، وكأنه وُلد لإحياء الكامن، وليخرجه إلى الحياة كمن يُخرِج اللؤلؤة من جوف البحر. فنشـــر أن هاجس الحب في حياة الشـــاعر عبدالله محمد باشـــراحيل هو بِنية روحية كامنة مع طاقتها، ولا تصـــنعها الغرائز، بل تصـــنعها موهبة وإيمان وثقافة وتجربة، حيث يتحوَّل الحـب في أعمـاقـه إلى كره متوهِّج من أفعـال وتأمُّلات لا تُحصَـى هي نتاج قدرتنا على إحياء ما نريده، ولذلك يصل الجسد والذاكرة إلى حدٍّ من حدود الاختراع وهو ما أتقنه الشـــعراء منذ بدء الإحســـاس البشـــري في منـازعـاتهم بين المـادة وهيـام الروح، فكـانوا يقولون: ﴿إِدْرَاكُهُ يَأْتِي بِالحِسِّ، وَالْحِسُّ عُزْلَةٌ﴾. ويختلف باشـراحيل هنا عنهم أن لا عزلة لديه، فصـوته جاهر، والضـوء تحت أجفانه، يلقي القصـــائد قبل أن تلقيها حنجرته، ذلك أن الحب لديه هو الروح الملهمة يصـــنعها الإيقاع الذي لا يعرف الشاعر له موعدًا في المجيء، ولكنه يعرف أنه يأتي

فتصـــدح لـه آلات البَوح ومباهج الروح، ويناديه قولًا سحريًّا يتدفَّأ هاجسه بنار الروح الدافئة وينشده قائلًا له:

قُلْتُ لَهُ:

لَـكَ حُسْـــنٌ شَـــاقَنِي مَـا أَجْمَلَـهْ
فِـيـهِ كُـلُّ الـحُـبِّ يُـحْـيِـي أَوَّلَـهْ

هَـاكَ رُوحِـي وَهَـيَـامِـي وَالْـمُـنَـى
إِنْ تَـكُـنْ كَـذَّبْـتَ قَـلْـبِـي فَـاسْـــأَلَـهْ

قُلْتُ لَهُ:

ضَـــاعَ عُـمْرِي قَبْـلَ لُقْيَـاكَ وَقَـدْ
عَـادَ لِـي إِذْ كُـنْـتَ يَـوْمًـا مَـوْئِـلَـهْ

الصِّـــبَـا وَالتِّيـهُ فِيـكَ الْمُشْـــتَهَى
ارْشُـــفِ الشَّـــهْـدَ شَـــهِيًّـا مَنْهَلَـهْ

قُلْتُ لَهُ:

كَـيْـفَ أَقْـوَى الْـبُـعْـدَ إِنْ تَـعْـذِلُـنِـي
يَـا لِـقَـلْـبِ الصَّـــبِّ مِـمَّـنْ أَذْهَـلَـهْ

بِـالَّـذِي سَـــوَّاكَ لَا فَـارَقْـتَـنِـي
أَنْـتَ إِنْ فَـارَقْـتَـنِـي مَـاتَ الْـوَلَـهْ

قصيدة قُلتُ لَه/ الديوان/ ص 155.

هذا القول الذي شهيَّتُه مشاعر السماع عند الآخر، وهي مشاعر لا تقع عند حدود مكان محدَّد، بل هي الشعر أينما يكون، الشعر الذي تكون تجربته مع وقائع الحب والحياة تعريفًا روحيًّا يُحسِن صياغة مودَّتِه (الشاعر عبدالله باشراحيل)؛ فنستعيد صدَى عناوينه في قرابين الوداع، ونكون تحت تأثير مدوَّنته وعاطفته ومرامه. فيولد النص الشعري بعدما تولد الحقيقة التي تحملُ مشاعرَ صاحبها، يولد النص عندما يولد الطفل الذي يسكن الذاكرةَ لا الرحمَ المظلمَ بتأوُّهات السرير وعُسر المخاض وصورة السونار. يولد لأنه ينبغي أن يرَى النور مع الفكرة والمُفردة والموسيقى وهيجان الذكريات، وبذلك نكون قد خلقنا قصيدةً وليس كما في العبارة المتداولة: (كتبنا قصيدة). .. فالحب الذي في قلب الشاعر هو مَن يكتبها ويجعلها قرابينَ منذورةً لوداع أو لقاء).

أقرأ في إنسانية الحب لدى شاعر اللحظة التي تتعدد اشتغالاتها وهواجسها وأقصد باشراحيل، لأشعر أنه يرى أن الشعر يفكر بالوجود من خلال انعكاس المشاعر على ما يتوهَّج في الباطن، ونحاول تصديرَه إلى الورقة في لحظة قد لا يخطط لها في سيرٍ زمنيٍّ معلوم، بل هي تأتي

عندما تسقط عليها قُدرة فجائية من غيب تتوارثه الروح بفطرة مجهولة لا معلومَ لها ولا مؤسس سوى الشعور الغامض بأن ثمة شيئًا فينا ينبغي أن يُقال، وعندما نقوله ندرك أن الذي نراه لم يكوِّن صناعة المحسوس على الأرض بالرغم من أن المحيط قد يُحفِّز لولادة مثل هذا الشعور، فيكون الشِّعر هو النتاج الغيبي للعيش والمعاشرة في الفضاء المادي، وبين الغيب والمادة كان الشعر يسجل أساطيره وملامحه واللحظات التي تصور منظر الزهرة ولقاء حبيبَيْن، أو التحدث عن لحظة ملوكية منتصرة أو مهزومة، وكان فيما مضى يمثل رؤية خالصة لما يعتقده الإنسان أنه كائن ربما أتى سهوًا للمكان الأرضي، فكان عليه أن يعود للالتصاق بالميتافيزيقا من خلال الشِّعر، وهذا ما حصل في معظم التراث الشعري ذي الصبغة الدينية وحتى الذاتية منه، وربما الفلسفة ذاتها صورة نثرية لهاجس الشعر الذي يصنعه الداخل ليخرج إلى العالم المادي على شكل لوح بجُملٍ وإيقاعات ومقاصد تتحدث بلسان غريب عن مألوف، ولن نُدرك روح الجمال فيه إلا عن طريق تلك المفردات وهذه الموسيقى التي يجسدها بحقيقة الشعر هذا النداء الذي يتملك قلب الشاعر ويحوله إلى وهج من العاطفة العاشقة والإنسانية الطافحة، وتلك

هي مهمة الشـــاعر في الحياة والمجتمع والحضـــارة ص 78:

لَمْ يَصْـــدَحِ الشِّـــعْرُ إِلَّا فِي نَبَالَتِكُمْ
وَمَـا تَـغَنَّى سِـــوَاكُـمْ رَجْـعُ إِلْـهَـامِي
وَجَدْتُ فِيكَ الَّذِي قَدْ كَانَ يَشْـــغَفُنِي
جُودَ الْكِرَامِ كَـمُزْنِ الْغَيْـمَـةِ الْـهَـامِي
مَـاذَا أُعَـدِّدُ عَـنْكُـمْ عَـنْ خَـلَائِقِكُـمْ
فَـأَنْـتَ كَـالنُّورِ يُضْـــوِي كُـلَّ إِظْلَامِ
يَـا طَيِّـبَ الْقَلْـبِ لَمْ تَطْوِ عَلَى دَخَنٍ
وَطَـاهِـرَ الْـكَـفِّ عَـنْ ظُـلْـمٍ وَآثَـامِ

قصيدة يا لائم الحب/ الديوان/ ص 78.

هذا الحب هو مِن بعض توهُّج الشـعر وخصـوصـيَّته ومكانته في الحياة، وهو أسمى وأنبل الهواجس الإنسانية التي يستخدمها ويوظفها عبدالله باشـراحيل في قصـائده، ويسـتطيع معه إيصـال تعاليم ما يُلقيه علينا ونسـتمتع به. وهي المتعة التي ضـفاف أنهارها موهبة الشـاعر، ونجوم ليلها أحلام الشاعر، وساعات متعة قراءتها أزمنة الشاعر، وأرائك الهدوء معها أمكنة الشـاعر. لتكتشـف معه رؤية

تنظيريَّة للشعر بصيغة رسائل حب تُتناقل بين أفئدة البشر بهاجس القصيدة وتفكير الشاعر بالعالم عن طريق عاطفة اسمها الحب.

يُكتَبْ الشـــعر الحقيقي ليؤصِّـــل الفكرة القديمة التي تقول يقف العالم على تَلَّة الكلمة ليتأمَّل ما يحدث ويدور ويمكن أن يفعله، وهذا تأكيد أن العالم الذي خُلِق بكلمةٍ وعلى الكلمة كما يؤمن بها شـاعرنا عبدالله باشـراحيل أن تعيش في وجدان القصـــيدة، ولا بـد أن يتذكَّر أن هـذه الكلمةَ المنطوقة بالصـــوت لا بد أن تحمل بعض هيبة البلاغة وشـــفافية الموســـيقى وعمق المعنى، لهذا أتى الإنســـان بعقله عندما نعرف أن العالم لا يُعاش ولا يدام ولا يتفاعل إلا بوجود الإنســان في عالم لا بد أن يســوده الحب والوئام ورسالات السلام..

وفي تفاصـــيله الكثيرة يُظهر الشـــعر لقارئه وكاتبه فتنةَ التخيُّـل ومتعةَ العيش بعيـدًا عن رتـابـة مـا يحـدث، كـان فلاسـفة الإغريق يقولون: آلهة الشـعر هي سـيدة الجميع. فيما أهل سـومر وبابل يعتقدون بأن كل شـيء طبيعي في تكوين الشـاعر كما في البشـر إلا أصـابعه فهي مَن اهتمَّت الأقدار ورؤى الموهبة ورعاية السـماء بصُـنْعها أو خَلْقها بعنايةٍ. لهذا كانت الكتابة الشعرية القديمة هي كتابة الروح

بكل صفاءِ تفكيرها في محاولتها لتأسيس مناهج جديدة واستشرافية لمُفردة الحب وتعدُّد عناوينها كما يفعله الشاعر باشراحيل في ديوانه قرابين الوداع، وكأن موجودَها لا يكون إلا في السياحة البعيدة إلى سماوات يُدرك فيها الشاعر أنها الموطن الحقيقي لما يتبقَّى للبشر بعد الموت، وكانت أغلب الرؤى الشعرية تتحدَّث عن وجودٍ بعد الموت وليس فناء. وهذا الوجد يكون الحب واحدًا من مسببات وُجوده في الأرض وفي السماء؛ حيث تشاء القدرية الأزلية أن تكون أمكنتنا هناك:

هَلْ تَذَكَّرْتِ ذَاتَ عُمْرٍ غَضِيضٍ
مَرَّ مِنْ حَوْلِنَا رَمَى بِالْهُيَامِ
جِئْتِ أَحْلَى مِنَ الْفُتُونِ وَأَشْهَى
أَنْتِ عِشْقِي وَصَبْوَتِي وَغَرَامِي
أَحْمِلُ الْعُمْرَ لَوْ أَرَدْتِ فِدَاءً
لَكِ أَنْتِ الَّتِي رَقَّتْ بِالتَّسَامِي
عَلَنًا نَلْتَقِي كَأَنَّا وُلِدْنَا
يَوْمَ أَمْسٍ وَحُبُّنَا أَلْفُ عَامِ

قصيدة الحب الخالد/ الديوان/ ص/ 160.

إذن نحن هنا لا ندرس شـــعرًا غرضـــه عاطفة الحب فقط، بل ندرس قلب إنســـان عاطفته مرايا عينيه، وقلبه وإيمانه أن الحياة بدون حب لا يمكنها أن تُعاش يومًا واحدًا، فالحب في عالم الدكتور عبدالله محمد باشراحيل هو عالم التَّقارُب في وُدِّ الأرواح والقلوب، عالم النجاح والتصالح والعمل والثقة والصراحة والانفتاح والإيمان. ومتى قرأتَ في غزليَّاته وموشَّحات قلبه وهي تتغنَّى بخَفق قلوب محبةٍ وترسم إحساسها بصُوَر تعدُّ بالعشرات في هذا الديوان (قرابين الوداع) فستَشعره ديوانَ حبٍّ فقط ترتقي فيه الحواس المبدعة إلى مرتبةٍ من الإلهام والخيال والتصـــافي، وتجعله يســـمو بلحظاتٍ من البَوح الذي تتناوَب في رسمه لغتان من الكتابة والإلقاء، واحدة بليغة في تدفُّق المشاعر والأفكار، والأخرى غنائية شفَّافة تقع في خانة السهل الممتنع.

وبين لغتين نشعر بتلك الرؤى التي تسكن قناعةَ الشاعر عندما تقرأ في عالمه الســـديمي بأن الشـــاعر خُلِق ليكون صـــانعًا لبهجة أرواحنا، إن كنا من شـــرق الأرض أو من مغاربها، فالحبُّ عنده هو اللحظة التي يبدأ المســـير منها إلى جهة الضوء أو جهة القلب أو جهة العطاء أو الذِّكرى أو العشق. فهو ينجح في إيصال فكرته عن روحانية الحب

وغراميات الوجد فيه من خلال جعله حبًّا إنسانيًّا بمشاعر واضحة وتتدفق من ينابيع اللغة مياه عذبة تُشاهَد في صفاء موجاتها صورًا رقيقةً لما تنشد به العاطفة وتحاول أن تجعله رسالة تتعدَّى المَحلي وتطلق آفاقها إلى الأرحب لتكون إنشادًا روحيًّا ومعرفيًّا لكل الذين يقرؤونه بلغة الضاد أو مترجمًا إلى لغة أخرى؛ لذلك فإن صنعة الحب لديه هي صنعة ليست مصطنعة لغرض إمتاع الذهن وإراحة العقل والبدن من تعب الحياة، بل هو رسالة يوجزها هو بمعنًى عميق في عبارة جميلة قالها في كتابه صدى العصر:

((الْحُبُّ لَا يَسْتَطِيعُ أَنْ يُضِيءَ قَلْبًا، لَا يُرِيدُ الْخُرُوجَ مِنَ الظَّلَامِ)).

تلك هي فلسفة الحب لدى الشاعر عبدالله باشراحيل، تعكس قيم الجمال بشكل واضح وتجعلها محسوسة وممتعة ومفهومة وتؤدي رسالتها، كما فعلها آدم في أول خليقته؛ حيث جعل الحب رسالة تتفاعل في هاجسها الكوني عند بدء يعرف روحانياته باشراحيل جيدًا ويقرأه في كتب مكتبته ويعايشه في الحياة، وهو يدرك عندما يكتب كل تلك المرويات الشعرية من فضاءات الحب وإلهامه إنما يعيش متعة وخيال وجمالية كل تلك

المحكيات التي تخيلها الإنسان عبر الأساطير والملاحم والمَسلَّات كانت تبرز هواجس الرهبة الخفية للأشياء الشاهقة فوق رؤوسنا في أعالي السماء، وكان القمر هو الأكثر تأثيرًا في صناعة تلك المرويات وحوله نُسجت آلاف الحكايا والتشبيهات والتصاوير منذ أول كلمات غزل وحتى هبوط المركبة الفضائية أبولو 11 على سطحه. وهي تؤكد لنا أن مفاخرة عمر بن ربيعة بسحره وجماله إنما هو غرور الخيال فقط:

بَينَمَا يَذكُرْنَنِي أَبْصَرْنَنِي

دُونَ قَيدِ المَيلِ يَعدُو بِي الأَغَرْ

قَالَتِ الكُبرَى أَتَعْرِفْنَ الفَتَى؟

قَالَتِ الوُسْطَى نَعَمْ هَذَا عُمَرْ

قَالَتِ الصُغْرَى وَقَدْ تَيَّمْتُهَا

قَدْ عَرَفْنَاهُ وَهَلْ يَخفَى القَمَرْ

فالحب على الأرض هو صنيعة الإنسان من نور قلبه وأقمار روحه، وهذا ما يؤكده لنا الشعر الذي يُدوِّن نبض قلب شاعر مثل عبدالله باشراحيل في إدراكه لقيمة الحب ليكون هاجسًا جماليًّا شافيًا لكثير من عُقَد الإنسان الحياتية، والحب عنده يؤدي غرضَه، يؤدي مع قيمه

الإيمانية ليس فيما يكتبه بقصـــائد هذا الديوان (قرابين الوداع)، بل في كل مجالس حياته ومؤلفاته الأخرى وفي مفاصــل عمله وعلاقته بالآخرين، فالأمر عنده يتعلَّق بلُقيا الإيمان مع القلب، وكلاهما لهم لُقيا في الحب مع نور الله، وقد أدركت هذا وأنا أعيد قراءة كتابه صــدى العصــر الذي يقول الدكتور باشراحيل في بعضٍ من نصوصه وفي الصـفحة 219 من الكتاب وقد حدَّد ما للحب من سـلطة وتأثير وتدارك هي نفسها ما تحدده قصائد ديوانه الشعري الذي نبحر فيه الآن عندما يقول:

((تَعَالَوْا لِنَقْتَبِسَ مِنْ حُبِّ اللَّهِ نُورًا يَكُونُ مِشْـعَلًا لِقُلُوبِنَا وَعُقُولِنَا. تَعَالَوْا نُحِبَّ بَعْضَـنَا بَعْضًـا فِي اللَّهِ، فَذَلِكَ الْحُبُّ الصَّـادِقُ الَّذِي لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ. تَعَالَوْا نَنْبِذِ الْبُغْضَ بَيْنَنَا لِأَنَّهُ لَا فَائِدَةَ مِنْهُ إِلَّا الْإِضْـــرَارَ بِقُلُوبِنَا وَعُقُولِنَا، وَلَكِنَّ الْحُبَّ يُزِيلُ هُمُومَكَ بِالصُّـــحْبَةِ الطَّيِّبَةِ وَيُؤْنِسُ وَحْدَتَكَ فِي غُرْبَةِ الدُّنْيَا. لِمَاذَا أَكْرَهُكَ؟! وَلِمَاذَا تَكْرَهُنِي؟! نَحْنُ أَحْوَجُ مَا نَكُونُ إِلَى بَعْضِـــنَا، أَرْجُوكُمْ تَعَالَوْا نُحِبَّ بَعْضَـــنَا فِي اللَّهِ، تُشْـــفَى هُمُومُنَا، وَتَرْتَاحُ نُفُوسُـــنَا، وَنَهْنَأُ بِحَيَاتِنَا))... ص/ 219/ كتاب صدى العصر.

هذا هو الحب، وتلك أيقوناته في عالم الدكتور الشاعر عبدالله باشـراحيل. تبدو مثل صـحائف تنشـر معانيها على

مســـاحات مرايا عيون قُرَّائه ومُحبّيه وهم ينتشـــرون كفراشـــات المَحبَّة على أغلفة دواوينه وكتبه وعناوين قصـائده، وهو مثل سـادن محبة الشـعر في قلوبهم، ينسـج مودَّة الحب دروسًـا وجماليات وعي لعقل العشـق ليكون مســارات الوعي والإلهام والحب الناصــع البياض، لهذا فإن قصـائده إيذان بولادات جديدة تُورِق بغابات الضــوء وحدائق كل تراثه الشـــعري وهي تحمل المعاني الرقيقة والصــور الجميلة والأحاسـيس المُرهفة والأفكار العميقة التي جسَّـدها في هاجسَـيْن مهمَّيْن يمتلكهما الشـاعر هما (عقله وقلبه):

كَمْ سَـــهِرْنَـا نُـدَاعِـبُ الْبَـدْرَ حِينًـا
ثُـمَّ نَـرْوِي اشْـــتِيَـاقَـنَـا بِـالْـمَـوَدَّهْ
نَرْشُـــفُ الْحُـبَّ مِنْ شِـــفَـاهٍ تَنَدَّتْ
بِـرَحِـيـقٍ مُـعَـلَّـلٍ سَـــاغَ وِرْدَهْ
نَحْضُـــنُ الْعِشْـــقَ مَرَّةً بَعْـدَ أُخْرَى
مِثْـلَـمَـا السَّـــيْفُ يَـحْضُـــنُ غِـمْـدَهْ
يَـا لِسِـــحْرِ الْجَمَـالِ فِيهَـا يُغَنِّي
أُغْـنِـيَـاتٍ مِـنَ الْـهَـنَـا مُسْـــتَـمَـدَّهْ

كُـلُّ قَـلْـبٍ يَـذُوبُ حِـيـنَ يَـرَاهَـا

لَـمْ يُـثِـرْهَـا سِـــوَايَ تَـعْشَـــقُ مَـجْـدَهُ

قصيدة سحر الجمال/ الديوان/ ص 314.

الفصل السادس

دلالة الحكمة بين كتابي "قرابين الوداع"، و"صدى العصر"

6

الحكمة هي استنباطٌ بليغٌ من تجربة حياةٍ أو قراءةِ كتاب أو مما يوحَى، هذا ما كنتُ أراه حين قرأتُ واطَّلعتُ وعِشتُ تجارب حياتي على بساطتها، ولكنها في التعريف العلمي المُدوَّن في الكتب والمراجع فإنها تعني تمامًا: (علم يُبحث فيه عن حقائق الأشياء على ما هي عليه في الوجود بقدرة وقدر الطاقة البشرية)، فهي علم نظري غير آلي، والحكمة أيضًا هي: (هيئة القوة العقلية العلمية).

والحكمة هي النظر بالعين والعقل والقلب في مشاركة بين العاطفة والتفكير الواعي؛ لينتج لنا دلالات مضيئة تصبح طريقًا لخطوات الحب والخير والبناء والصلاح والإصلاح.

تأتي الحكمة من عمق التجربة والثقافة والموهبة، ولا تأتي من نُطق لسان ومجادلة عصبيَّة. والحكمة في الشعر هي كما الحكمة في النثر، غير أن الأُولَى تُقال موزونة، والثانية تُقال بكلمات تحمل المعنى من دون إيقاعات حروف، وفي الحالتين فإن الجمال القادم من حكمة

حقيقيَّة يؤثر في بهجة الروح، لأنها ذات متعة في السماع وفائدة في الممارسات الحياتية، وقديمًا قالوا: اذهب إلى الحكيم لتزيل عنك كل ظلمة يطاردك بها عدو أو لئيم.

والحكماء من عهد أول اكتشاف اللغات في سومر وبابل ومرورًا بالإغريق والفراعنة وعصور النُّبوات وحتى يومنا هذا هم في صفوة المجتمع وتقديره، وكان الولاة والحكام والأباطرة والسلاطين والملوك أصحاب الإصلاح وحب الحكمة في كل سفر التاريخ الحضاري للأرض، يبحثون عن الحكيم قبل بحثهم عن الوزير؛ لأن الحكيم يُعيِّن والوزير ينفذ.

هنا ندرس ونقرأ ونبحث في دلالات الحكمة ورؤيتها من خلال كتاب للشعر صدر للشاعر الدكتور عبدالله باشراحيل وهو بعنوان: (قرابين الوداع) وهو كتاب جمالي فيما ينتظم فيه من القصائد وتعدُّد الأغراض والعناوين، وهو في رؤيته سِفر روحي وتاريخي لحياة الشاعر ونظرته وتعامله مع العالم، وهو تعامل إنساني وأدبي يتناسب تمامًا مع قناعة وإيمان الشاعر بأن رسالة الشعر هي رسالة الإنسان إلى ما يحيطه وأبعد مما يحيطه، فأينما يكون الإنسان تكون الكلمة. فيما الكتاب الثاني المتزامن في صدوره مع الكتاب الأول (قرابين الوداع) لنفس المؤلف

الدكتور عبدالله باشراحيل هو كتاب (صدى العصر ـــــ سياحة فكرية) وهو كتاب أجِدُه مهمًّا من حيث غِنَى المواضيع في تنوُّع عناوينها وأهدافها ورؤيتها إلى العالم بمنظور أغلبه فكري واستقراء وتحليل ونظر وبحث لأمور تهم عالَمَنا المعاصر (السياسة والأدب والعلاقات الاجتماعية والحكمة وخواطر ما يسكن القلب) وصدى العصر في مجمله هو انعكاس ما يشعره الشاعر لما يراه ليتحول عنده إلى نص مكتوب من أجل أن تتم قراءته، والغاية منه نفع بدون مقابل.

بين الكتابين تتوالد طروحات عديدة يضعها الشاعر أمام طاولات التفكير ومتعة القراءة، ولكننا آثرنا هنا أن نأخذ في دلالات المقارنة بين ما في الكتابين، نأخذ رؤية الحكمة في رسالة الشعر والفكر وفق منظور رؤية صاحب الكتابين. ومتى قرأت نصوص (قرابين الوداع) وبحثت عن الحكمة فإنك تجدها تسكن وبوضوح وإضاءة بين مئات الأبيات الشعرية داخل الديوان لتشعر أنه يلقيها على مسمعنا ويكتبها لذائقتنا فقط ليؤشر إلى حياته الناجحة والتي تعلم منها الكثير، وتلك حكمتها يصوغها لنا قلائد لقصائد القرابين التي نذرها لمحطات عُمْرٍ عاش فيه وفيها لما تربَّى عليه وقرأه في أمهات الكتب ومعارف الأولين،

وجعل الحكمة دلالة للمقارنة بين الكتابين (قرابين الوداع، وصدى العصر) إنما هي رغبة في اكتشاف المشتركات التي ساهمت موهبة الشاعر وثقافته والوعي في خلقها، فكتابه الشعري هو فضاء واسع لأكثر من مئتي نص شعري، والرؤى فيه تختلف في مقاصدها وأغراضها غير أن رؤيته القائمة على تعريف الفلسفة بأنها (حب الحكمة) ترينا الكثير من معالم رسالة الشاعر في جعل قرابينه نوافذ للحلم الإنساني الذي يسكنه من أجل مبادئ الخير والمودة والحب، وبينها تسترسل رؤى الحكمة في تلك الدلالة والمقارنة بين الكتابين، فمثلا في قرابين الوداع يقول الشاعر عبدالله باشراحيل في قصيدة (عشق الحياة) ص/70/ الديوان:

تُرِيدُ حَيَاتُنَا فِي الْأَرْضِ خُلْدًا
وَلَوْ خَلُدَتْ لَكُنَّا الْأَوَّلِينَا
وُلِدْنَا وَالْحُتُوفُ تُقِيمُ عَهْدًا
بِأَنْ تَجْرِي سُيُوفُ الْقَتْلِ فِينَا
لِذَا هَانَتْ حَيَاةُ النَّاسِ حَتَّى
رَأَيْنَا الْقَتْلَ قَدْ أَضْحَى فُنُونَا

وَكَمْ نَـأْسَـــى عَلَى الـدُّنْيَـا وَفِيهَـا
وُحُـوشُ الْإِنْـسِ أَقْسَـــى الْـقَـاتِـلِـيـنَـا
لَـقَـدْ فُـطِـرَ الـزَّمَـانُ كَـمَـا فُـطِـرْنَـا
حَـيَـاةٌ لَا تَسُـــرُّ الـنَّـاظِـرِيـنَـا

هذه حكمة اســتنباطيَّة من دروس الحياة، ارتدَتْ ثوبَ الموعظة من خلال إحســاس الشــاعر وتجربته في الحياة وتعامُلِه مع مختلف البشـــر من أذواق وأمزجة وأجناس وثقافات وتبايُن طَبَقي، وحتمًا في الشـــعر ترتدي الحكمة خصوصيَّة البناء اللغوي للبيت الشعري من حيث القافية، والشــطر، والعَجُز، والوزن، والبحر الشــعري، والشــاعر الفَطين مَن يشـــعر أن الحكمة تســـكن روحَه وعليه أن يُســـمعها إلى خلق يحبه ويقرؤه مَن يتحفظ بمعنى حكمته وقصديَّتها داخل شروط التأليف والكتابة الشعرية، وأظن أن الشاعر عبدالله باشراحيل قد نجح بذلك تمامًا.

وحين نبحث الدلالة المقاربة لحكمة الشاعر في شعره مع ما دونه في كتابه صدى العصر ولقصيدة عشق الحياة فسنجد أن الحكمة في قصدها المطابق والمشابه يوجد في أكثر من مكان في كتابه الفكري النثري (صـــدى العصر). وقد تقارب المحدد بين الرؤيتين في الحكمة بين

الشعر والنثر في موضوعه (مملكة الحب الإنساني) ص 145 من كتاب صدى العصر والتي مُبتدؤها هو:

((لِمَاذَا يجبُ أنْ نغْتَسِلَ بدِمائِنَا حَتَّى نُورِي الْحِقْدَ وَالْبَغْضَاءَ فِي نُفُوسِنَا؟! لِمَاذَا نُرِيدُ أَنْ نَكُونَ وَحْدَنَا القَابِضِينَ علَى نَعِيمِ الدُّنْيا دُونَ غَيْرِنَا؟! لِمَاذَا لَا يَكُونُ الْإِيثَارُ لَا الْأَثَرَةُ هُوَ طَبِيعَتُنَا؟ لِمَاذَا نَسْتَوْحِشُ الضَّعِيفَ وَالْمِسْكِينَ وَنَضَعُ مَرَاتِبَ لِلْإِنْسَانِ دُونَ النَّظَرِ إِلَى قَلْبِهِ وَعَقْلِهِ؟!... لِذَا فَمَنْ يُرِيدُ الِانْتِمَاءَ إِلَى مَمْلَكَةِ الْحُبِّ الْإِنْسَانِيِّ عَلَيْهِ تَسْجِيلُ اسْمِهِ حَتَّى تَسْتَقْطِبَ لَهَا الْخَيِّرِينَ وَالصَّادِقِينَ وَالْمُؤْثِرِينَ إِلَى غَيْرِهِمْ، عِنْدَمَا نَعْلَمُ أَنَّ الْإِنْسَانَ يَغْتَنِي بِالْكَلِمَةِ الطَّيِّبَةِ.. بِوَرْدَةٍ.. بِقُبْلَةٍ.. بِاحْتِضَانِ الْقُلُوبِ الْمُتْعَبَةِ)).

التوارُد هنا في حِكمة النصَّيْن: الشعري، والنثري، هو قراءة حال الإنسان وجعل الحكمة هنا السؤال والجواب، وفي الحالتين فإن التوجُّه إلى الإنسان بصفته قيمةً عليا هو جزء من حالة الشاعر والمفكر، والحكمة واحدة من أغراض وأساسيات هذه الحكمة. ففي الشعر:

وَكَمْ نَأْسَى عَلَى الدُّنْيَا وَفِيهَا

وُحُوشُ الْإِنْسِ أَقْسَى الْقَاتِلِينَا

وفي النثر:

((لِمَاذَا يجِبُ أنْ نغْتَسِلَ بدِمائِنَا حَتَّى نُورِي الْحِقْدَ وَالْبَغْضَاءَ فِي نُفُوسِنَا؟ لِمَاذَا نُريدُ أَنْ نَكُونَ وَحْدَنَا القَابِضِينَ علَى نَعِيمِ الدُّنْيَا دُونَ غَيْرِنَا؟))

بين هذَيْن النصَّيْن تُولَد حِكمة ثقافة الشاعر وهاجِس قلبه لنكتشفَ أن الشاعر في عطائه ليس ليكون مدَّاحًا، أو منشدَ قصائد حب، أو صانع خيالٍ، بل إن للشعر رسالةً فكريةً وغرضًا يتوفر عندما تنضج الذاكرة، ويكتسب العقل المشاعر والمعارف والتجارب، فيحق له أن يضع حكمته في أفئدة الناس، وقديمًا كان هوميروس شاعر الإغريق العظيم يشعر أنه قد لا يبصر لكن عيونه وبصيرته في حكمة ما يشعر، ولهذا جعل قصائده عن طروادة حِكَمًا تُذكِّر الإنسانية بالحروب وويلاتها وخرابها وخُدَعها.

غير أن حكمة باشراحيل هي حكمة السلام وقد جعلت أطياف الشعر والنثر شيئًا من ملاذات الروح حين تحتاج قناديلَ لتُضيء ظلمة ما يعتقد أنها تعيق سير الإنسان إلى الأمان في طرقات الخير والإيمان والمحبة، وأي من هذه الخصائص الجميلة تحتاج إلى حكمة القلب والفعل

واللسان والكتابة لتؤدي أغراضها. ومتى سكن إحساس الشعر وحكمته في قلب الشاعر ذهب إلى دهشة السطور يحاول أن يوازن فيها ما بين الكلام ومعرفيته ليجعله رسالة إنسانية وتربوية وأدبيه وليس حشوًا للكلام كما عند البعض. فهو يوليها بإحساسها ومناسباتها، وربما يركن في ليل الكتابة إلى مكتبه ويقود شموع قلبه ويراجع يومه الحياتي في عمله وعلاقاته ومجالسه، ويستنبط من كل هذا سحرًا في القول يعتقد أنه ما يجود فيه القلب من حكمة الكلام ورؤاه، وفي أغراضٍ تَعلَّم مساراتها من ثقافة أبيه وتربيته البيتية والتعليمية. وتشعر أن الحياة عنده تراكمات الأحاسيس التي يفككها ويحللها ثم يجد لها منافذ لتكون ضوءًا من الشعر أو النثر، فتراه مرة يجنح إلى القصيدة ومرة أخرى إلى النثر، وفي حكمة هذين المزيجين هو (عبدالله باشراحيل) ثبت لنا قدرته على صنع الوعي بأنواع متعددة من مواهب الكتابة وأنواعها، فهو شاعر وناثر ومفكر وعالم في إدارة الأعمال ولديه خبرات الحياة العملية والروحية، وكلها أوجبت عليه ليواجه ظله الآخر في الخلق (الإنسان)، ويحدثه بالتفكير الهادئ والمنير والناصح والحكيم، في موازنة فكرية وجمالية بين العقل والقلب:

((غُرُورُ النَّفْسِ يَصْـــنَعُهُ الْقَلْبُ مِنْ خِلَالِ اشْـــتِهَاءَاتِهِ الفَوْضَـــوِيَّةِ، وَهُوَ إِنَّمَا يَهْدِمُ المَوْهِبَةَ وَيَمْحَقُ الذَّكَاءَ ويُرَبِّي الضَّـــغَائِنَ، ويُراكِمُ الشَّـــحْنَاءَ وَيَتَكَلَّفُ النَّفْسَ فيُنْسِـــيها إِنَّهَا هِيَ وَالْحَقِيقَةُ هُوَ أَنْتَ لَا هُوَ، فَقَدْ تَغْفُلُ نَفْسُـــكَ عَنْكَ وَتَهْرُبُ مِنْـكَ وَتَتْرُكُـكَ فِي مَجَـاهِـلِ الْمَظِنَّـاتِ وَغَوَائِـلِ الْعَثَرَاتِ فَتَضِلَّ فِي وَهْمِ الذَّاتِ.

لِذَا فَلَا تَبْعَثْ بِنَضَائِدِ فِكْرِكَ إِلَّا لِمَنْ سَمِعَ فَأَوْعَى وَقَدَّرَ فَهَدَى، لِتَرَى نَفْسَـــكَ فِي تَفَرُّدِهَا أَوْ فِي تَغَرُّبِهَا ضَـــاحِكَةً مِنْكَ، بَـاكِيَـةً لَـدَيْكَ وَأَنْـتَ تَسْـــتَفْتِحُ مَجَـاهِـلَ الـدُّرُوبِ وَتَسْـــتَنْطِقُ الْحُرُوفَ وَتَعْرِفُ أَنَّ كَلِمَـةً مَـا تَحُطُّ بِـالْقَـدْرِ وَأُخْرَى تَجْعَلُ قَدْرًا لِلْقَدْرِ.))

العقل والقلب/ كتاب صدى العصر/ ص 150.

وفي البحثِ عن مُقارب روحي وحياتي وحِسّـــي لهذه الرؤية في عالم عبدالله باشـراحيل، وديوان (قرابين الوداع) هو أنموذجنا؛ فإننا نجد تطابُقاتِ الرؤية والقصد في الكثير من الأنـاشـــيـد الروحيـة لهـاجس الـديوان. فـأديـبٌ مثل باشـــراحيل، يشـــعر بوجود التوهُّج الأبدي في ذاته ليكون محفزًا لنشـــر وعي الكلمة وفلاســـفة اليونـان ومفكري العربية ومنهم التوحيدي والجاحظ وحتى المتنبي الشـاعر يرون أن فعل الكلمة في حكمتها، لهذا فإن الشـــعر لدى

باشــراحيل أيضــا هو حكمة (العقل والقلب) وقد ارتدت في حكمتها والنصيحة الجديد والقديم أيضًا:

نَـقُـولُ كَـمَـا قَـالَ الْـوَرَى ونشُـــومُ

جَـدِيـدُكِ فِـي هَـذِي الْـحَـيَـاةِ قَـدِيـمُ

نَـدُورُ مَعَ الـدُّنْيَـا كَـمَـا دَارَ قَبْلَنَـا

أُنَـاسٌ سَـــنَـمْضِـــي إِثْـرَهُـمْ وَنُـقِـيـمُ

هِيَ الْأَرْضُ إِرْثٌ وَالزَّمَـانُ وَرِيثُهَـا

وَبَـيْـنَـهُـمَـا خَـلْـقُ الْـحَـيَـاةِ يَـهِـيـمُ

قصيدة الجديد القديم/ الديوان/ ص 63.

يرى مَن يقارن بين النصَّـيْن النثري والشـعري (العقل والقلب، والقديم والجديد) أن المزاوجة والمتداول بين النصين يكاد يكون هاجسهما القريب والبعيد واحدًا رغم اختلاف البِنية اللغوية بينهما، ولكننا في المقاربة نجد أن حكمة الكلام تذهب إلى ذات القصـــد وأن الرؤية لدى الكاتب (باشـــراحيل) كفكر تصـــبُّ في التوجُّه الجميل صـوب تحقيق المصـالح الإنسـانية والإيمانية لدى الفرد، وهي دعوة يراد فيها توحيد تفكير العقل والقلب من أجل زرع بذرة الخير، والنثر هنا يعطي مســـاحات من كتابة الأفكار وتحقيق أهداف الرؤية بأبعد ما يصـــل إليه مؤثر

الكلمة ومعانيها حين تصطف الكلمات مع بعضها لتكوّن عبارةً بمعنًى، والمختلف في الشعر أن الحكمة هي بذات الهاجس، ولكنها محكومة بشروط الكتابة الشعرية فلا تأتي كما تأتي صياغة النثر ومساحاتها الواسعة في خلق التأثر لدى المتلقي، وبالرغم من هذا يحاول المفكر والأديب عبدالله باشراحيل أن يجد لنا في رسائله الأدبية والإبداعية أن يجعل الشعر فهمًا كما النثر، ويؤديان رسالتهما بذات القصد والمعنى والجمال، كما في إشارته الطيبة في نثرية بكتابه (صدى العصر) يقول فيها:

((جَمِيلٌ أَنْ تَكُونَ قَطْرَةً مِنْ قَطَرَاتِ الْمَطَرِ)) وهذه العبارة بلذَّتها وبلاغة إحساسها وحكمة المعنى فيها ربما التقت من دون أن يعلم مع واحدة من أجمل صور الشعر العالمي عن المطر قالها الشاعر الداغستاني رسول حمزاتوف في كتابه الجميل (داغستان بلدي): ((لَيْسَ هُنَاكَ مُوسِيقَى أَجْمَلُ مِنْ صَوْتِ الْمَطَرِ)) ومع حكمة باشراحيل في جميل أن تكون قطرة من قطرات المطر وبين ما يكتبُه رسول حمزاتوف في كتابه النثري الأثير (داغستان بلدي)، جملتهُ الرومانسية الهائلة التي تقول: (لَيْسَ هُنَاكَ مُوسِيقَى أَجْمَلُ مِنْ صَوْتِ الْمَطَرِ).

وكانت هذه الجملة نافذة من نوافذ فردوس أرواحنا حين تعود موسيقى القطرات الهاطلة من السماء لتذكرنا بجمالِ أماسي سعادة القصب حين يبلل المطرُ سيقانَه، وتقفز الأسماك في مرح طفولي في شتاء قصير تعيشه أهوار جنوب العراق في كل عام.

لأشعر أن الأمكنة تلتقي في حكمة الخرائط، وأن عليَّ أن أغادر ذكرياتي لأبقى مع سياحة حكمة الشاعر في مرانه مع الحياة وهو يتداول حكمتها بين نثر وشعر وكأنه يؤلف لنا موسيقى روحية تنشد كلمتها من أجل أن يجد لنا طرقات حافلة بالنور وبالمعنى وكما هذه الشذرات الحكيمة في كتابه صدى العصر:

- نُرِيدُ أَنْ نَصِلَ بِالصَّبْرِ إِلَى الصَّمْتِ، وَبِالصَّمْتِ إِلَى الحِكْمَةِ.

- الشِّعْرُ هُوَ جَوَاهِرُ العُقُولِ، وهُنَاكَ مَنْ لَا يُفَرِّقُ بَيْنَ الجَوَاهِرِ والزُّجَاجِ، لِذَا فَمِنَ العَيْبِ أَنْ تُرِيَ الجَوَاهِرَ لِمَنْ لَمْ يَعْرِفْهَا.

- تَأَمَّلْ فِي ضَعْفِكَ بَعْدَ قُوَّتِكَ.

- عِتَابُكَ لِلْعَاقِلِ مَهَارَةٌ، وَعِتَابُكَ لِلْجَاهِلِ خَسَارَةٌ.

وفي المُقارب الشعري لحكمة النثر في كتاب (صدى العصر) نأخذ من ديوانه الشعري (قرابين الوداع) شذرات لحكمة الشعر حين يُراد له أن يصبح قنديلًا ومعنًى:

(نَصِفُ العُقُولَ جَمِيعَهَا الْعَاقِلْ
لَا عَقْلَ يُوصَفُ أَنَّهُ الْكَامِلُ)

(وَأَنْتَ مَنْ فِي يَدَيْكَ أَصَابِعٌ عَشْرَةْ
كَفَاكَ خَمْسٌ تَكُنْ لِلْخَيْرِ مُبْتَدَرَةْ)

(إِنَّمَا الدُّنْيَا أَلْفُ طَرِيقْ
فَاخْتَرِ الدَّرْبَ الذِي أَنْتَ تُطِيقْ)

(سَيْفٌ هُوَ الْقَلَمُ وَالْحِبْرُ فِيهِ
دَمُمَا كُلُّ مَنْ كَتَبَتْ أَقْلَامُهُمْ فَهِمُوا)

بين حكم الكتابين شَذَرات المعنَى تُضيء بهاجس يسكن تفكيرَ الشاعر ويقودُه إلى الإصرار على إبقاء رسالته بذات الهدف وذات المعنى، وكأنه يريد أن يبقَى كما حامل شعلة أولمب حتى يبقَى العالم مُضاءً بنور الكلمة والحقيقة والحكمة على الدوام. فتشعر أن تلك المقاربات بين رُؤى الكتابين وهما لمُبدع واحد، دائمًا لهما مرسى واحد يلتقيان عنده هو قلب الشاعر وعقله،

فهو يعيش بهجةَ الرؤى حين يكتبها نثرًا وربما تتضاعف السعادة وبهجتها معه حين يكتبها شعرًا، وما بين الموهبتين الشعر والنثر يحاول الشاعر أن يصوغ رؤيته بحكمة وجمالية في صياغة العبارة وهو يشعر تمامًا مثلما شعر صناع الحكمة الإنسانية من أول نشأة الكتابة والشعور بتأثير الوعي في بناء الحضارات قولهم من أن الرسائل التي لا تبدأ بحكمة تفقد نصف بريقها والمعنى؛ لذا فإن عبدالله باشراحيل ومن خلال مكتبة البيت اكتسب الوعي الذي ذهب به أن يجعل نتاجه القادم هو نتاج الوعي في قدرة الشعر والنثر على صنع الهاجس الملهم والمؤثر والجميل والنافع أيضًا.

وهكذا هي الحكمة تفرد الوعي في حدائق العقل وصفة البهاء في إنعاش بهجة القراءة لدى المتلقي والكتابة لدى المؤلف، وفي الحالتين هي كما في وصف سقراط لها: الحكمة واحدة من أطيب ثمار الفلسفة.

بين كتابين للشاعر والكاتب عبدالله باشراحيل يمكنك أن تفترض القراءة سياحةً لكسب متعة جمال التفاسير والأفكار؛ فتجدها في النشر كلمات تؤدي هدفًا اجتماعيًّا وروحيًّا ووطنيًّا وإنسانيًّا، ولكن بصيغة الاسترسال والشروحات، فيما تجدها في الشعر مُغنَّاةً بصدَى أوزان

القوافي وتفعيلاتها، لكنهما يلتقيان في ذات المعنى والهدف، فمتى تقرأ نتاجه منثورًا (صدى العصر) تعيش حقيقةَ أنه سياحة فكرية هادفة، وقد كُتبت بتنويعات محطات الحياة وخبرتها، ومن يختبر الحياة في يومه وطموحه وأحلامه ونجاحاته حتمًا سيمتلك حكمةً مِن كل هذا.

هذا الامتلاك سطَّره لنا المفكر عبدالله باشراحيل في رؤى كثيرة داخل الكتاب، وكل حكمتها أننا ينبغي أن نرى الحياة بنقاء سريرتنا وذكاء الفطنة المكتسبة لدينا موهبةً من الله وما منحته لنا ثقافة الاطلاع والكتب. فيما كانت قصائد قرابين الوداع هي صدى الروح هي عالم الرجل الذي مع كل إهداء لي من كتبه أجده متواضعًا بهاجس الحكماء وقدرتهم على صناعة مودَّة الأشياء الجديدة التي تقودنا إلى منابع بهجة الكلمات في حكمتها وشاعريتها وجمالها، هذه البهجة التي جسَّد حكمتها في التساؤلات والرؤى حتى تكون لنا قنديلًا وحكمةً وبوصلةً، وهذا ما ذكره بديوانه (قرابين الوداع) في قصيدة بوصلة ص/ 282:

((يَعْرِفُ مَنْ قَالَ أَنَّى يَكُونُ؟!
إِذَا انْكَشَفَ الغَيْبُ عَنْ مَرْحَلَةْ
تَكُنْ صَفْحَةُ الصُّبْحِ

لِلْمَاكِثِينَ وَلِلعَابِرِينْ
إِلَى كُلِّ قَلْبٍ حَزِينْ
تَكُنْ بُوصَلَةْ.))

وفي دلالة التناظر الفكري ورؤى حكمة القول علينا في التخاطر والتقابل بين حكمة الكتابين، فإننا لن نتعب لنجد المُقارب الروحي بين دافع كتابة الديوان وبين دوافع ما كتبه عبدالله باشراحيل في صدى العصر، فهو يدرك تمامًا أن ما يسكنه هو ما يسكن هدفه في الحياة، وما يقوله في الشعر هو في هدفه وقيمته نفسه ما يقوله في النثر، لكن شخصية الشاعر هنا تلقي حكمتها بإنشاد مَهيب، وتحكمه بلاغة وخصائص الشعر، وفي النثر يمتلك حرية كبيرة في الكتابة خصوصًا ما يخص الأفكار التي تهم الحياة والمجتمع بنطاقه الوطني والإقليمي والعالمي. ففي مقاله من كتابه صدى العصر موضوع بعنوان (آمال الناس) / ص 194. نكتشف التقارب في حكمته ومساحته الروحية مع هاجس وحكمة:

((إِذَا انْكَشَفَ الغَيْبُ عَنْ مَرْحَلَةٍ
تَكُنْ صَفْحَةُ الصُّبْحِ
لِلْمَاكِثِينَ وَلِلْعَابِرِينَ))

فتكون آمال الناس هي لحظة العبور إلى الضوء وتغليب بهجة العقل وجعلها نافذة لاكتشاف الأعمال الصالحة ومواطن الإبداع:

((حِينَ تَكُونُ قَلْبًا تَعِيشُ فِيهِ آمَالُ النَّاسِ يَجِبُ عَلَيْكَ أَنْ يَكُونَ حَمْدُ اللهِ هِيَ اللُّغَةَ الَّتِي لَا تُفَارِقُ لِسَانَكَ. وَحِينَ تَتَغَلَّبُ عَلَيْكَ فُصُولُ الْأَحْدَاثِ وَتُحَاوِلُ أَنْ تَجْتَذِبَهَا لِإِعَادَةِ صِيَاغَتِهَا وَتَرْتِيبِ مَوَادِّهَا كَحَالَةٍ وُجُودِيَّةٍ كَانَتْ افْتِرَاضِيَّةً ثُمَّ تَجْرِيبِيَّةً حَتَّى تَكُونَ حَقِيقَةً))

إذن هي الحقيقة ذاتها وحكمتها واحدة إن كانت شعرًا أم كانت نثرًا.

بَينَ الكِتابَين (قرابين الوداع، وصدى العصر) يضع الدكتور الشاعر عبدالله باشراحيل لنا حكمةَ حياتِه، ودروسَها وتجارِبَها، وضعها بتواضُع أمام نواظر قُرَّائه وهو يعرف جيدًا أن كشوفاتها مضيئة ومفيدة، وأن المعاني فيها تصل إلى القلوب والعقول في ذاتِ اللحظة وذات الإيقاع، إنه يرسم لنا إرهاصات حكمة الشاعر والعالم، ويُمازجهما في نهر أفكاره لتجري في أعماقنا وحواسِّنَا، والموج بهجة الكلمات الشاعرة والمبصرة.

مقاربات الحكمة بين كتابي (باشراحيل) هي مقاربات روحيَّة وإرشاديَّة وحياتيَّة، كُتبت بهاجسَيِ الإلهام

والموهبة؛ فحصــلنا على التقاء فكرتين في حكمة واحدة، فكرة الشِّعر وفكرة النثر، والرسالة هي النفع ورؤية الإلهام كيف يصبح من حُسن الكلام.

قرأت الكتابين، وأدركت أن صــديقي الشــاعر يكتب حكمته من تجربته ورؤيته من عقل وقصيدته من روح.

الفصل السابع

عاطفة الروح ببراءة الغَزَل العفيف (ديوان قرابين الروح حديقتها)

7

كان الشـــعر العربي قديمُه وحديثُه يرتدي عباءة الغزل أكثر من ارتـدائـه عبـاءات الأغراض الأخرى كـالمـديح والفخر والموعظة والحكمة وغيرها، وخصوصًا بعد تطور الحياة الحضـــارية العربية وانفتاحها على الحضـــارات الأخرى وخصوصًا في عصر الفتوحات وحكم الخلافتين الأمويَّة والعباسيَّة.

شـعر الشـاعر العربي أنه يرى مباهج جديدة للحياة غير تلك التي يراها في بيئته القديمة حيث أغلبها حياة قَبَلية وصـحراوية، فقد بدأت دولة الإسـلام تبني مُدنًا حضـرية، وأصـــبحت بغداد في عهد الرشـــيد مثلًا واحدةً من مُدن العالم المُســوَّرة بالقصــور والبســاتين والحدائق، ومثلها دمشـق ومدن الجزيرة، ثم أتت إلى نواظر الشـعراء مباهج جمـال مـدن أخرى أتـت بهـا الفتوحـات كمـدن الأنـدلس ومدن ما وراء النهر، مثل: ســمرقند، وبُخارى، وأصــفهان وغيرها. فقد صـــنعت هذه الظواهر العمرانية والجغرافية الجـديـدة تحوُّلات روحيـة في بِنيـة الشـــعر وتحوُّلات

أغراضه، ومنها الغزل برؤيته التي كان أغلبها يقع في خانة الغزل العذري، وهو ما ابتدأته قصيدة المعلقات ليكون الغزل مطلعًا لها، ومن ثَم انتشرت أحاسيسه في العصر الأموي الأول، وبقي حتى في سقوط دولة بني العباس ومجيئ الموجات الغازية لعالمنا العربي وأَشْرسُها الغزو المغولي والسلجوقي والعثماني وما تلاهما، وحتى سقوط النظم الاستعمارية، ونشوء الممالك والجمهوريات وغيرها من نظم الحكم الوطنية.

على مدَى هذه العهود التاريخية والحضارية عاش الشعر مع هواجس البشر وبأغراض عِدَّة، غير أن غزليَّات الشعر شكَّلت حضورًا متميزًا في هذه المحطات الحضارية، فعلى مسلَّات الأثر القديم كان هناك غزل، وفي الأساطير وقصائد الشعراء الأولى كان هناك غزل، وفوق ناقة وتحت ظل خيمة الشاعر الجاهلي كان هناك غزل، وفي قصة قيس ليلى كان هناك غزل، وعند رابعة العدوية كان هناك غزل، وعند روميو وجولييت كان الغزل، ودواوين الشاعر المعاصر نزار قباني كلها غزل في غزل، وما يُطلق عليه قصائد الحب.

مع كل تلك المقدمة التي تختصر مشاعر الغزل في القصيدة، أقرأ في ديوان (قرابين الوداع) للشاعر الدكتور

عبدالله باشراحيل، فأجد بين قصائده عناوين هاجس روحه في إبداع صنعة الغزل بصورته الروحية والدَّمثة والمُشعَّة ببراءة الحب، غزل من النوع العُذري الذي يؤكد العلاقة الطيبة بين قلب الشاعر وقلوب البشر القريبين والبعيدين عنه، وربما قصيدة شريرة التي نجدها في (قرابين الوداع) في ص 26 تحمل مُفارقةً غريبة بين العنوان وسحر غزل ناعم مكتوب بذاكرة عطر وموهبة ناعمة الإحساس يشدها وصل عذوبة همس الكلمات، فالمقارنة بين العنوان الصادم (الشريرة) وما في داخل القصيدة من بَوح عُذري وأنشودة لعاطفة القلب يبرر لك أن تعيد قراءة بِنية العنوان وتُسقطه على ما في القصيدة، تشعر أن العنوان ربما وُضع بقصديَّة حسيَّة بليغة ومقصودة؛ ذلك لأن تلك التي يطلق عليها بصيغة الدلال المشاكس (الشريرة) وهي مَن تحضر بعاطفتها وعطرها وجمالها داخل النص لتجعل الشاعر يتحدث في نصِّه عن مشاعره ورُؤاه ولحظة الغزل عنده في إنسانيتها وعذريتها:

لَا وَقْتَ عِنْدِي لِمَحْبُوبٍ أُدَلِّلُهُ

مَنْ لَا يُدَلِّلُنِي حُبًّا فَلَا كَانَا

مَـا كَـانَ هَمِّي نُجُومُ اللَّيْـلِ أَنْظُرُهَـا
وَلَا شُـــمُوسُ الْعَـذَارَى حِينَ تَغْشَـــانَـا
أَحِبَّتِي أَيُّـهـمْ أَهْـوَى: تُسَـــائِلُـنِي
أُحِـبُّ لَـيْـلَـى وَبُـثْـنَـا ثُـمَّ مَـيْـلَانًـا
لَكِنَّ حُبِّي الَّـذِي أَهْوَى وَأَعْشَـــقُـهُ
حُبِّي لِمَنْ بَـادَلَتْنِي الْحُـبَّ إِنْسَـــانًـا

ومتى تدرس النص بروحه وفكرته وإنسانيته تشعر أن الشاعر يرسم لك صورته فيما يعتقد ويسعى ويجاهد في إثبات أن وفاءه لن يكون سوى من تشعر بإنسانيته ومشاعره وتسمع نبض قلبه جيدًا، وربما القصيدة هي نصح لشريرة سكنت خواطر الأزمنة، وتحوَّلت إلى درس زمني لذكريات الغزل الذي كان ربما من أول تلوينات بوادر الموهبة الشعرية لدى صاحب قرابين الوداع.

وفي كل القصائد المقروءة بذات العاطفة وأنت تقرأ في السِّفر الناعم لمشاعر غزليَّاته وعناوين قصائده تجد أن لغة الغزل لديه لغة سهلة ومرئيَّة وشفَّافة وتسودها جماليَّة الصورة وبراءة المشاعر. فأتذكر أن رسم الصورة في جعلها تسبح في براءة الإحساس وغموض مصدرها هي من بعض لذائذ الغزل في الشعر، وربما الصورة في

هاجِس غرابتها تعيش على تلك المفارقات الوجدانيَّة التي ربما بيت واحد فيها يجعلنا نَسبح في أخيلَة فرح الكلمات وبهجتها وقدرتها على مد أواصـــر المحبَّة والســـلام بين البشر، وأذكر أن أجمل صورة في الغزل في شعر الهايكو الياباني القديم اختيرت لشاعر ياباني مجهول يقول فيها:

((اللَّيَالِي الَّتِي لَا أَرَاكِ فِيهَا... لَيْلَةً لَيْلَةً أَعُدُّهَا.))

وهي ذات الليلة عند باشـــراحيل تتشـــابه فيها عواطف البَوح ويتحوَّل الغزل العُذري إلى عاطفة من براءة الإنسان في بحثه داخل طرقات الليل ليجيء بمن يهواه ويُنادمه صـلاةً وغزَلًا عذرياً وبَوْحيًّا لمشـاعر الروح التي أعتقد أن عالَم باشـــراحيل الشـــعري يزخر بها، ويقيم لها منصَّـــات إنشـــاد عاطفي يعبر وفيه وبثقافة ملتزمة وموهبة تعرف تقدير عاطفتها والتعبير عنها.

ذات الليالي التي يرى فيها باشـــراحيل عاطفتَه ويؤثِّثها عند بهجة الحب وعاطفة الروح وبلاغة العبارة الشـــعرية، لتنتج لنا غزَلًا يســـبح ببراءته وســـط أنهار وبحار وينابيع أرواحنا:

يَـا حَـبِـيـبِـي وَيَـا نَـدِيَّ الْـمُـحَـيَّـا

جِـئْـتَ وَالـنُّـورُ مِـنْ فُـتُـونِـكَ حَـيَّـا
قَـمَرٌ أَنْـتَ قَـدْ أَضَـــأْتَ اللَّيَـالِي
مِنْ سَـــنَـاكَ الْبَهِيِّ يَضْـــوِي الثُّرَيَّـا
كَيْفَ أَسْـــهَرْتَنِي وَرُمْـتَ سُـــهَـادِي
كَـيْـفَ تَـغْـفُـو وَلَاهِـبُ الشَّـــوْقِ فِـيَّ
لَا أُسَـــمِّيـكَ إِنَّ وَصْـــفَـكَ يَكْفِي
أَنْ يَـكُـونَ الْـجَـمَـالُ مِـنْـكَ تَشَـــيَّـا

قصيدة: نديُّ المُحيَّا/ الديوان/ ص30.

ومتى ذهبت لتنتقل بين حدائق القصـــائد وفي جانبها العاطفي ستشـهد روحًا تفيضُ من بهجة مشـاعرها وكأنه يلتقي في ثقافته والبَوح مع ما كان أفلاطون يفترضـــه في جمهوريته، تلك المثاليات التي قد لا نجدها ســـوى عند الشعراء، فإنهم بناة الصورة وإحساسها، والعبارة وعشقها، والشاعر هنا واحد من سَدَنة تلك المشاعر، ومنها يصنعون عـاطفـة الغزَل أو أي عـاطفـة أخرى، ومن يقرأ في ديوان (قرابين الوداع) سيرى جليًّا ما يظنه أن الشـاعر كتب غزلًا كثيرًا ولكن جمالية وأفكار هذه المشاعر الغزلية تصبُّ في

رؤيته لاحترام الآخر وقراءة الحُسن فيه من خلال هاجس الحب في براءته وعُذريته وجماليته.

لقد كتب باشراحيل الغزل تحت عنوانه الإنساني والعاطفي (قصائد حب)، وهي إنْ أخرجْتَها من الديوان وبوَّبتَها بكتاب مستقل ستراها تظهر بأكثر دقة ومعنى لقُرَّائها، لكنه فضَّل أن يجعلها متناثرة داخل الديوان كما تتناثر حياة العقد على بلاط من الكهرمان في قاعة ينصت فيها الجميل إلى الشاعر وهو يشدو غزلًا يعبر فيه بقصد أن النظر من خلال نافذة الجمال فهو من أجل الحصول على وقت جميل نريح فيه أرواحنا، ودائمًا هناك في قلب كل شاعر حبيبة، وتختلف في المسمى، وقد تكون تلك الحبيبة افتراضية وبعض صدًى لذكرياته، لكنها عند باشراحيل ترتدي أكثر من بريق وقصد وتغزل، وفي النهاية تشعر أن غزليَّاته هي ليست لحبيبة مُشخَّصة ومُسمَّاة، فالحبيبات في عالم الشاعر هي اللائي يَسكنَّ عناوين قصيدته وبتعدُّد الملامح:

((نَمْ هُنَا فِي الظِّلِّ فِي الرَّوْبِ الطَّرُوبِ
نَمْ بِطِيبٍ
أَنْتَ الدَّفِينُ سَكَنْتَ أَعْمَاقَ القُلُوبِ
كَمَا الطُّيُوبِ

فَانْعَمْ بِجَنَّتِكَ الْوَرِيفَةِ فِي الغُيُوبِ
وَكُنْ حَبِيبِي))

تقرأ ما يتغزل فيه الشاعر، فتشعر أن الشاعر هنا واحد من صُنَّاع الفرح ومتعة سحر الكلمات، وأنه خُلِق ليكون من صُنَّاع البهجة التي يحتاجها الإنسان ليعيش حياته ملاصقًا لأحاسيس الجمال وتأثيره، وربما يكون الحب أول صناع هذه الأحاسيس، ومن مكمِّلات صنع الحب يكون الغزل، وقد عُرف الغزل ومنذ أول ما تحدثت به عاطفة الإنسان بأنه: نوعٌ من أنواع الشِّعر الذي يكون موضوعه الرئيسيُّ هو التَّغنِّي بالحبيبة وذِكرِ مَحاسنها؛ حيث يَقوم الشاعر بوَصفِ جمالِ مَحبوبته ويذكر مواطنِ الجمال فيها، كأن يَتغنى بِجمال جَسدِها، أو جمال عيونها، أو إشراقة وَجهِها، كما يَبُثُّ فيه الشاعر شَكواه من ألَم فِراق الحبيبة، وابتعادها عنه أو سَفرها.

وهناك نوعان من الغَزل: الغزل العُذري، والغزل الصَّريح، كما أنَّ هناك العديد من الشُّعراء الذين اشتُهروا في هذا المجال.

هذا الغزل قد يكون عند الكثير من الشعراء رسائل عشق بقصد إيصاله لمن يهمها الأمر، والبعض يستخدم الغزل العلني كغَرَض شِعري في أغلب نتاجه واشتهر فيه

كما عند نزار قباني، لكن غزليَّات الدكتور باشـراحيل هي ثقافة جمالية لهاجس الهام يحتاجه في إيصـال إبداعه وما يسكنه من فِطرة أتت بوعي ربما زرعتها إرهاصات موهبة صِـبا أو طفولته، فكان أن جعل الحبيبة الافتراضـيَّة أو الحقيقيَّة نقطة ضـوء في أحلام القصـائد التي لون في إيقاعها لوحة الحياة التي ينظر إليها من خلال حواء نصفنا الثاني؛ فتقترب إرهاصـاته لتكون بَوحًا جميلًا لعاطفة شـاعرة تحب الحياة وتحوّلها إلى أنشـودة حياة تحفز فينا عاطفة الحب، والتصالح، والمودة، ونكران الذات، وجعل الجمال أريكة تسـتريح عليها أيامنا، وأغلب ما كتبه باشـراحيل في عذريَّة غزله وبراءته هي نداءات عاشـق للحياة يتخذ من وردته لسـان حال يناجيها فيه بلغة موسيقية بارعة وهادئة ومؤثرة. هذه المناجاة إليها هي في محصلتها حديث روح يسكنها الشوق وإيقاعات وجمال الشعر عندما يسكنه الغزل ومناجاة آدم لحواء:

أَتُرَى يَعُودُ زَمَانُنَا الْمَنْسِيُّ

قَلْبَانِ فِي قَلْبٍ وَفِي حِسّ

لَا تَسْأَلِينِي عَنْ هَوَى أَمْسِي

بَلْ بَادِلِينِي الْهَمْسَ بِالْهَمْسِ

يَــا زَهْــرَةَ الــنُّــوَّارِ وَالْــوَرْدِ
يَـا بَـهْـجَـةَ الْـقَـلْـبِ الَّـذِي يَـفْـدِي

قصيدة: (مُرّي على نظري)/ الديوان/ ص 144.

عالم الغَزَل العفيف في منجز الشـــعر لدى الشـــاعر الدكتور عبدالله باشـراحيل شـكَّل رؤية واضـحة المقاصـد عندما يشعر هو أن هدف الشعر أن يضع وردةَ الجمال في حديقتها التي تتلاءم معها روحًا ومناخًا وبيئةً هي الأقرب لتكون بيئة روحانيَّة تصـنع الشـعر فائدة وليسـت عبثًا من فوضَى الكلمات. فتشعر أن الشاعر تُسيّره أحكام مجتمعيَّة وذاتيَّة وثقافيَّة وفِطريَّة وبيتيَّة ليُحســن خيارات تصــاويره الشــعرية في هذا الجانب، وكأنه يعرف جيدًا ما يتمنى أو يســكن ذاته ليكون نداءً عاطفيًّا تجعل الغرض الشــعري يتناســب تمامًا مع غايته ورؤيته الحياتيَّة والثقافيَّة والحضــاريَّة حتى عندما يكون في إبداع باشــراحيل غزلًا لعِفَّة الكلمة وصــفاء مقصــدها وروعة نحتها ورســمها وجماليَّتها.

هو عالَمه، اســتشــراف لغوي لنبض قلب مرهف، وإحســاس ببراءة تســكنها قدرة وعي لعاطفةِ العقل الذي يلوذُ بخيال جنائن أفكاره، فيُنشئ لنا غزلًا منسوجًا كثيابٍ

خيوطُها الضوءُ، وألوانُها صفاء سماء قلب الشاعر، فتشعر أنه يبتكرها ليس لشجن وخيال في فراغ المتعة الجسدية، إنما هو يؤسِّس لبهجة الروح في متعتها مع نشوى الصدى العذب لتلك الإيقاعات الإنسانية التي تسكن، فتكون القصيدة العاطفية عنه غزلًا لبراءة يريد فيها أن يلفت انتباه قارئه بأن الحب والوئام والتصالح والعيش الكريم ليس بعيدًا عنه، فقط يحتاج إلى قلبٍ صافٍ وعقلٍ مؤمن ومتنوِّر.

هذا ما رأيتُه وأنا أبحث في عناوين قصائد (قرابين الوداع) فأشعر أن الشاعر يصنع لنا من كون بهجته ثراءً عاطفيًّا اكتسبه من خلال القراءات وحقائب السفر ومحطات الحياة وتنوُّعها، فصار الغزل لديه قرابين لنذور أحلامه وطموحاته في الحياة تلك التي رافقته من أول خواطر طفولته وصِباه وحتى اليوم.

فالغَزَل هنا على براءته فهو رؤية روحانية ترتدي عباءة الجمال لتغطي بعاطفتها جسد القصيدة، تلك العاطفة التي جعلها الشاعر نقطةَ وصلٍ بين مرايا عينيه ومرايا القلوب التي يكتب إليها أناشيده لأفتش عن ترديد ما حفظته من غزل قديم كان أجمل يقوم الآن في ذاكرتي لأبحث له عن مقارن بينه وبين تلك الغزليَّات الناعمة المبنى والمغزى

لباشـراحيل، فأتذكر ما طاف في خيال جميل بُثينة من عفَّة الشـوق وبراءة الحِسّ ليكون تعبيرًا صـادقًا عن عفَّة الغزل وجمال عاطفته كقوله:

لَقَدْ فُضِّـلَتْ حُسْـنًا عَلَى النَّاسِ مِثْلَمَا

عَلَى أَلْفِ شَـــهْرٍ فُضِّـــلَتْ لَيلَـةُ القَـدرِ

عَلَيْهَـا سَـــلَامُ اللَّهِ مِنْ ذِي صَـــبَـابَـةٍ

وَصَـــبٍّ مُعَنًّى بِـالوَسَـــاوِسِ وَالْفِكرِ

وَإِنَّـكُـمَـا إِنْ لَـمْ تَـعُـوجَـا فَـإِنَّـنِـي

سَـــأَصْـــرِفُ وَجْدِي فَأّذَنَا الْيَوْمَ بِالْهَجْرِ

وفي المقارن الغَزَلي لعالَم الشـاعر عبدالله باشـراحيل تتوحَّد العِفَّة في النظر والأحاسيس، فأشعر أن بين الوليد الأموي وباشراحيل الكِندي ذات الإحساس وذات مطاولة الحب كما في قصـيدة: ظمأ الحب في ص/ 156 من الديوان:

أَلَسْـــتِ أَنْـتِ غِوَايَاتِي الَّتِي اغْتَرَبَتْ

وَعَـاشِـــقٌ سَـــاهِرٌ وَاللَّيْـلُ وَالنَّـالُ

رُدِّي الـرَّبِـيـعَ إِلَـى غَـيْـدَاءَ نَـاهِـدَةٍ

يَـلـذُّ مِـنْ شَـــفَـتَـيْـهَـا الْـبُـنُّ وَالـهَـالُ

وَإِنْ تَمَـادَى النَّوَى عُودِي إِلَى أَمَلِي
إِنِّـي وَأَنْـتِ عَـلَـى الْآمَـالِ نَـحْـتَـالُ

بين الرؤيتين يذهب هذا الهاجس الناعم من نشـــوى الحب وعاطفتِه العُذريَّة في شـــعر باشـــراحيل لنجده بمستويات عديدة وربما تُرافِق هذه المستويات المحطات الحياتيَّة وتجارِبها، ففي أول موهبته نشـــأت لديه غزَليَّات براءة الروح وحماس موهبتها وأخيلَتها مع مشـــاعر الروح الشـــابَّة وهي تنهل من التراث العربي قراءاتها الأولى، ثم تطور الأمر في مراحـل حيـاتيَّـة أخرى وأهمُّهـا الحيـاة الجماعيَّة حيث نضـــج الفكر واتســـعت مســـاحة العاطفة وإنســانيَّتُها، ومعها نضـجت موهبة الشـعر إلى تقارُبٍ بين مشاعر القلب وانعكس هذا على واحدٍ من أغراض الشعر لديه، حيث اليوم يتناول الكثير من الدارسـين هذا الجانب الجميل في التجربة الجميلة والكونيَّة للشـــاعر عبدالله باشـــراحيل، فتشـــعر أن عاطفة الغزل لديه فكرة وصـــنعة للدهشـــة والإبحار في ســـرمديَّة البَوح الذي ســـكنت آدم حين شعر أنه لا يمكن له أن يتخلَّى عن هواء وليس غريبًا أن يكون أبو البشـــر آدم هو أول من كتب قصـــيدة الغزل،

وبعدها كتب الرثاء يوم شاهد واحدًا من أبنائه يشجُّ رأس أخيه بحجر ويقتلُه.

وهكذا هو باشراحيل في امتلاك موهبة صناعة الغزل في دهشة قصيدة، حيث قرأت منذ مدَّة من الزمن ما كتبه المحرر الثقافي لصحيفة الراية القطرية وهو يستعرض بإنصافٍ ديوان عبدالله باشراحيل والذي عنوانه (أبجدية قلب) ما نصه:

((إنَّ السِّياقات الشعريَّة التي يترامَى فيها الشاعرُ عبر مجموعتِهِ (أبجديَّة قلبٍ) تضعه في المِنطقة الخَطِرة من التحوُّلات التي تَعتريه، ويُقدِم عليها، طالما كان أجادَ وأبدعَ فيما سبَقَها من شِعر، وحتى شعر نبَطِي ونَثر أيضًا، لذلك وضِمن إحساسه القويّ والعارِم الطافِح بالزمن، أظُنُّه سيتقدَّم في مغامراته الرومانسيَّة الحصيفة إلى تُخوم القصيدة الحديثة، كي يستدعي أعراضَها وجواهِرَها، وكي يستميلَ أعطافَها طالما ذهب فيها إلى العِشق، والعشقُ الشعريُّ كهربات ومَغْنطات، وتحوُّلات، لا يقوى عليها سوى الشاعر الذي يشيد بثابت ومُتحوِّل أدونيس في قصيدته، وأظنه سيركب هذا المَركَب الصعب طالما الْتقَى أدونيس عَيانًا، والتقاه في شِعره ورُؤاه ومغامرته، على صعيد قصيدة قوية، متينة، مُحكَمة العبارة والسَّبْك، شديدة

المِراس والقُوى والبِنية، وفيها مُصاقَبَة الألفاظ لمُصاقَبَة المعاني.))

هذه شهادةٌ مُنصِفةٌ ومكتوبة بوعيٍ عن جانب يتَّقد بسِحريَّته الخاصَّة في عالَم الدكتور الشاعر عبدالله باشراحيل، وقد أسرجَ لنا مصابيحَ قلبه ليُضيئها بين دواوينه بهاجِس العاشق والفارس، وسادِنِ رسالة وعي وحلم وثقافة وجمال. هذا الجمال هو مَن نجمعه في كل تلك الموصوفات لنشاهد أزمنة الشاعر وأمكنته تُضيء في أساطير قلبه العاشق، أزمنةً للسفر، ورِثاءَ مُحبّين، وملاحمَ عاشقين، وبحارًا لمُبحرين، وذكريات لحفنة الشوق والسنين، فتشعر أن باشراحيل هو شاعر الحب والزمن المُعاش بلحظته الفاتنة وهو مُعبَّر عنه في قصيدة (قرابين الوداع) والتي حملت عنوان ديوانه الشعري:

تَـذَكَّـرْتُ الـزَّمَـانَ وَكَـيْـفَ كُـنَّـا

شُـمُوعًـا يَسْـتَضِـيءُ بِهَـا النَّزِيـلُ

يُسَـاهِرُنَا الصِّـبَا وَالرُّوحُ نَشْـوَى

وَلَـيْـلُ الْـحَـالِـمِـيـنَ بِـنَـا يَـطُـولُ

وأجمل ما في فنتازيا هذا الزمن وحكايته العاشقة بغزَلٍ جديدٍ من روح مُعطَّرة بشذَى الكلمات والسيرة الذاتيَّة

المُعاشــة والســعادة بما أنجزت وأيًّا تكون القدرية ما دام الحب يشـكِّل الرسـالة الإنسـانيَّة الأولى في ثقافة الشـاعر وحلمه وتربيته ومُنجَزه الذي يتحدث فيه الشـــاعر عن رؤيته وســعادته بالمصــائر أينما تكون ونلاقيها ما دام هو ركب معه سـفينة السـندباد وأبحر لشَـتَّى جهات الأرض ليســمع صــوته (من حنجرة) عبدالله باشــراحيل شــاعر العاطفة والحس، والنظر إلى القدرية بعيون قلبه قبل أن يتعـامـل معهـا من خلال دفـاتر الـذكريـات والقلق من المجهول أيًّا كان:

حَبِيبِي كَيْفَ كُنَّـا كَيْفَ صِـــرْنَـا؟

يَـرُودُ حَـيَـاتَـنَـا قَـالٌ وَقِـيـلُ

وَمَـا زِلْـتُ الْـمُحَـارِبَ دُونَ قَوْمِي

أُفَـدِّي مَـا اسْـــتَـطَـعْـتُ وَلَا أَقُـولُ

حَـمَـلْـتُ هُـمُـومَ أَحْـبَـابِـي وَحِـيـدًا

وَحِـمْـلُ أَحِـبَّـتِـي دَوْمًـا ثَـقِـيـلُ.

مختصـر الرؤية في كشـوفات مناظرات الحب وعوالِمه في التجربة الشـعرية لعبدالله باشـراحيل، ونحن نعيش متعة قراءة قرابينه، إن ما يصل إلى القلب يأتي عن طريق الروح فقط، هكـذا كـانوا يرون الأمر ولا يتعـدُّونه إلى غير تلك

الرؤية، لأن في ذلك مهانةً للوجود الموجود الذي حملناه علنًا وخُفية، وكتب غزليَّاته بشجن ولحن وصدق، حين أعلن الشاعر عبدالله باشراحيل حاجةَ الكون في شيء من جسده فنال ما نال مما يظنه مُنى وتقرُّب مِن الذي وسع طيفه تحت أجفان القصيدة وصار هالةً من النور لا تنتهي..

ذلك لأن لغة الحب في الشعر هي علم وطريقة، هكذا أراها ويراها الناس ومن اهتم بها.

عِلم لأنها تبحث عن كشفٍ ما، ولكنه كشف صعب، بل يقترب من المستحيل، وبالرغم من هذا يقول أحدهم: نحن جادُّون لنصل إلى المُبتغَى، شاء الضد أم أبَى، ويقال: إن هذه العبارة المسيسة هي العبارة الوحيدة التي كشفت روح المقاومة عند شعراء الحب ضد دولة المغول في بدء تأسيس إمبراطوريتها التي رأت في اتساع الرؤى عندهم سفسطةً وزندقةً وهرطقةً وطريقةً لا يُحببها ولاتهم وأباطرتهم، لأنها سلوك مميز وطقوس تخضع مواقيتُها إلى فعل الزمن بذاكرة الروح، فهي لا تدري متى تقوم قيامتها، ولذلك تظل منتظرة حتى قيام الساعة.

يشتغل الشاعر (باشراحيل) في دائرة الكمال الحِسّي ولا يتجاوزه إلا لحظةَ الشعور باللقاء، وهو يدفع عربة

الزمن في طريقٍ لا نهايةَ له، وعندما يدنو أَجَلُ الجسد ينادون على فكرة التناسخ لتأتي وتأخذ البدن إلى أي مكان حتى لو حفرةً في خَرِبة، لكن الروح تظلُّ هائمة في سماوات الوَجد ومتى داهمها النعاس فأَلْفُ روضة تنتظرها، وألْفُ وردة تكون لها وسادةً.

لهذا فإنك عندما تقرأ في ديوان (قرابين الوداع) تشعر بأنه صحيفة لواحدة من إشراقات الذات، وهي ذروة في مشاهدة الآخر للآخر عبر نحو العبارة وسمو الفكرة وشهوة النصيحة، بل إن الديوان هو فنٌّ في حوارٍ من أجل الوصول إلى قدرية تصنع قناعة المُستقر لدى التساؤلات المليئة بالظن بأن الذي يحدث بمكوِّنة واحدة هي عاطفة القصيدة ورغبة الشاعر لإيصالها إلى أعمق مشاعرنا، لكن سَيرَهُ يقع تحت طائلة الاجتهاد والتصوير وبناء الجملة، وكان الشاعر في غزليَّاته وكتابته لملامح الوجد في قلبه يكتب لنا تلك القرابين المُطرَّزة على صفحات كتابه وفق وضوح الفهم مرتبطًا بما يحسه في عمل الروح وملابسات الهم واجتهاد التصوُّر في بناء تلك العبارة التي تجعل الشاعر (باشراحيل) ينجز لنا مؤلفًا يحتوي على الكم الهائل من أناشيد الفكر والقلب، ورسائل حب تتلاءم مع

عاطفته وأمكنتها وأزمنتها وموانئها، حيث ســـفر الشـــاعر المبدع دومًا إلى جهات الضوء البعيد.

الفصل الثامن

قرابينُ الودَاع استعادةٌ أخرَى لوجه الأب

((إننا نُريحُ أنفسَـــنَا من خلال أن نُعايِش مرة أخرى الذكريات... لسنا مؤرخين، بل نحن أقربُ إلى الشعراء، وقد تكون انفعالاتُنا ليســـت إلا تعبيرًا عن الشِّـــعر الذي فقدناه)).

الفيلسوف الفرنسي غاستون باشلار.

8

ينظر الشعر إلى الأمكنة وساكنيها على أنها مادَّة حقيقية لقِرَاءة نبض الشعر وقياس مستوى الإحساس الإنساني فيه، والبيت في تعريفه الروحي هو: "جمع الذكريات في أزمنة الحياة"، وفي التعريف المادي هو: "السقف الذي يأوينا ويوفر لنا الملاذ الآمن، وهو الوطن الصغير الذي يسكنه الفرد وأهل بيته، ثم يذهب ليتَّحِد في هاجس الجغرافية والتجاور مع بيوت أخرى فيكون الوطن."

ومنذ الخليقة الأولى والشعراء يعتقدون أن هاجِس الشعر يأتي عندما يكون المكان دافئًا، ومن معك يشعرون أنهم يؤثِّثون بيتَ القصيدة ليُبنَى ويصبح كيانًا لغويًّا ويمتلك المعنى، وهناك وجوه تمنح ذات الإحساس للشاعر كي يكتب قصيدته، وأقصد الوجوه الغائبة عن دنيا البيت، وقد ارتحلت في أبدها السرمدي، أو حملت حقائبها وسافرت، وأسباب أخرى، لكن الشاعر الحقيقي هو مَن يستجمع تأريخ المكان ويُنوِّع فيه الهواجِس والأزمنة ويمتلك القدرة من خلال القصيدة لاستعادتها

جميعها. ومتى تمَّت تلك الاستعادة فقد استطاع الشعر أن يكوِّن صـــورته في غرضٍ كهـذا، والصـــورة عبـارة عن مجموعة الأحاســـيس التي يُناجي بها مودَّة وجوهٍ تعيش معـه (الزوجـة، والابن، والابنـة، والأحفـاد) وأخرى ربمـا كانت تعيش معه وغابَت عنه إلى قدرها المكتوب (الأم، الأب، الأجداد)، وهناك أيضًـا مَن هم مُشـاركون معنا في صـنع تلك الحياة ولهم منزلة خاصـة (الأقارب من أخوال وأعمام، الأصدقاء، ومَن نعرفهم في أقدار الحياة).

كل هؤلاء يُشـــكِّلون التأريخ الروحي للوجوه في قلب الشـاعر، وإليهم تمتدُّ عاطفة الشـعر وهواجِسـه ومناسـبته، فأشـــعر أن هذه المُقدِّمة كافية لتكون توضـــيحًا لقراءتنا لديوان الشـاعر الدكتور عبدالله باشـراحيل (قرابين الوداع- الناشـر دار كتابي/ مصـر) وعلى فخامة وضـخامة وغزارة مادَّته الشعريَّة، فإن رسم المكان (البيت) يلاحق ظِلَّ جفن القراءة بين هـاجِس الحنين والمنـاجـاة والحـب لوجوه غادرت الحياة وأخرى تُســـاهم معه في صـــناعة الحنان والألفة والحلم في هذه الحياة التي عليه كشـاعر وإنسـان ألَّا ينسَـى مودَّتَه معها، وفي كل إبداع الشـاعر المجتهد في حنينه عبدالله باشـــراحيل نجده كثيرَ الحمد لمن عايشـــه ويعيش معه، وهـذا الحمـد الـذي لا بـد أن يكون إلى الله

أولًا، وما قُدِّر فيه للشاعر من نعمةٍ وموهبةٍ وجَاهٍ، ومن ثَم للورود التي شـاركته حياتَه وملأت صـدرَ أيامه عطورُها، وتبقى بهجتُه إليها في الحنين إلى تواريخ المنزل، وزمالة العمل، وبطاقات طائرات السفر، لتتكوَّن في عاطفة الشعر إلى هـاجسٍ عـذبٍ تجتمع فيـه كـل تَكوُّن الوجوه لتُكوِّن مادَّةً سـحريةً وخياليَّة يُسـجِّلها الشـاعر بعنوان اسـمه الذكرى:

تِلْـكَ الْوُرُودُ وَكَـانَـتْ وَرْدَتِي فِيهَـا
شَـــمِـيـمُـهَـا الْـعِـطْـرُ فَـوَّاحٌ بَـوَادِيـهَـا
تِلْـكَ الْهَنُوفُ الَّتِي مَـا زِلْـتُ أَذْكُرُهَـا
وَإِنْ نَسَـــتْنِي فَـإِنِّي لَسْـــتُ نَـاسِـــيهَـا
كَمَـا النَّسَـــائِمِ إِذْ مَرَّتْ عَلَى فَنَنٍ
مَـرَّ الـرَّبِـيـعِ وَفَـرَّقْـنَـا تَـجَـنِّـيـهَـا
هِيَ الشَّـــغُوفُ بِحُبِّي كَيْفَ أُنْكِرُهَـا؟
كُـلُّ السَّـــلَامِ عَـلَيْهَـا فِي مَغَـانِيـهَـا

قصيدة: ذكرى/ الديوان/ ص/ 62.

مع هاجس الذكرَى تتجمَّع هواجس المنزل، فتشـعر أن الشـاعر يكتب حتى يسـتعيد، ويسـتعيد حتى يكتب، ومتى

قرأتَ أناشيد الشاعر باشراحيل لِعَشراتِ الوجوهِ التي يستعيد معها بناءَ الأزمنة إن كانت ماضيةً أو كانت حاضرةً؛ فإن الأب يكاد أن يكون جِذعَ نخلة تلك الأزمنة، والأُم سَعفها المُورِق، ذلك لأن صورة الأب في معظم استذكارات ومدائح باشراحيل الشعرية هي صورةٌ للضوء المُشِع في أعماق الشاعر، وعبارة الحكمة في لسانه، وسماحة العاطفة في ملامحه، وموسيقى نبض القلب في حنانه، ولا يتوقَّف الشاعر في الكثير من حواراته وطروحاته عن ذِكر الأب وتأثُّره في مسيرته الحياتيَّة والإبداعيَّة، وعليه فإن قراءة ما يُبدعه الدكتور عبدالله باشراحيل لا يُعزَل تمامًا عن الجذر الأبوي والعائلي والوطني والقَبَلي الذي انتمَى إليه.

صورة الأب هي بعض مظاهر عاطفة الكتابة في هذا الديوان وقد أشار إليها الشاعر في المُقدِّمة البليغة في ديوانه ص/ 104 حيث تجلس قصيدة مؤثِّرة تتحدَّث عن الابن في أصل قبيلته (الأب) وعنوانها: (كِندة الملوك)، ولكنها عميقة في إظهار التأثر الروحي والمادي لتلاؤم الأب وابنه في السياق المجتمعي لَوَجَدْنا في حاضنة القبيلة والبيت والوطن عبر الفخر بالذات من خلال الفخر

من يَلِد هذه الذات ويُعلِّمها شـــرفَ الانتماء إلى القبيلة واستلهام قِيَمها وتواريخها وأصالتها:

أَنَا الشَّـــاعِرُ الْكِنْدِيُّ وَالصَّـــادِقُ الَّذِي

سَـــمَوْتُ عُـلُـوًّا وَاقْـتَـرَتْـنِـي الْأَمَـائِـلُ

جَمَعْتُ كَرِيمَ الْأَصْـــلِ وَالنُّبْلِ وَالْعُلَا

وَمَنْ بَذَلَ الْمَعْرُوفَ لَا شَـــكَّ فَاضِـــلُ

وَتَسْـــكُنُنِي نَفْسٌ عَنِ الْكِبْرِ تَرْتَقِي

وَمَـا أَنَـا إِلَّا لِـلْـمَـكَـارِمِ فَـاعِـلُ

تُجَشِّـــمُنِي نَفْسِـــي الصِّـــعَابَ فَأَغْتَدِي

إِلَـى شَـــرَفٍ أَعْـلُـو بِـهِ وَأَنَـاضِـــلُ

هو هنا في تلك القصيدة الحماسيَّة من مفاخر الانتماء إلى كِندة يقصد بكريم الأصل والده الذي سما معه علوًّا وارتقَى بنفسه معه إلى شرف يعلو به ويناضل، وكأنه ينقل وبأمانٍ حالَ ما يشعره الأب لولده لتكون روعةُ المشاعر هي بعضٌ من سِحر الصورة الشعرية لدى باشراحيل بعاطفتها الصافية أبوَّتها الجميلة كما في مقطوعة أبوية حميمة يسكبها الشاعر بلذَّة القول قائلًا في ص/ 402 من الديوان:

((جَزَاءُ بِرِّكَ هَا
قَدْ بَرَّنِي وَلَدِي
بِرُّ الْأُبُوَّةِ نُو
رُ اللهِ لِلْوَلَدِ))

والأب عند باشراحيل رؤية روحيَّة تُضيء له مسافات طريقه في الحياة، وحتى في المُقدمة الأدبيَّة لهذا الكتاب فإن صورة الأب -رحمه الله- هي صورة الخطوة الأولى والدرس الأول، ويبدو أن ملامح الأب في مُقارب الوجدان لدى الشاعر وفلسفته في الحياة حملت على عباءته في سَيره الصعب في طرقات الحياة تطريزا ذهبيًّا لملامح الوالد، فكان الثناء إليه في عشرات المناسبات والخُطب والقصائد جزءًا قليلًا من رَدِّ الدَّيْن، وأي قصيدة تقرؤها للشاعر عبدالله باشراحيل في هذا الديوان وغيره تأتي بها سيرة الوالد الراحل تتكشف لك بين ثنايا أبيات القصيدة صورة الرجل العصامي والمجتهد والمؤمن والحكيم.

عالَم باشراحيل الأبوي هو عالم قصائد الشكر والعرفان، وعالم المديح الذي لا ينتهي للوجه المُضيء في جوانب البيت وأمكنة العمل ومنصَّات الكلام، هو يعطيه ما يعتقد أنه قليل بحقه، لكني أراه وهو مُحتفٍ

بكونيته وامتداد سِحر قصيدته إلى البعيد يحاول جاهدًا أن يضع أناشيد الحب لذلك الرجل الذي لم يزل هو وآباؤه رايات تواريخ آل شراحيل وكِندة، وأحلام شاعرهم الكبير عبدالله باشراحيل، فإن من مفاخر شعره أن يكون أبوه واحدًا من مفاخر شِعره وانتمائه والوفاء إلى سيرته الجليلة كلها:

بِأَبِيهِ كُلُّ إِنْسَانٍ يُفَاخِرْ
رَحِمَ اللَّهُ أَبِي مَاضٍ وَحَاضِرْ
كَانَ رَوْضَ الْحُبِّ كَالْوَرْدِ الْمُنَدَّى
كَانَ قَلْبًا بِمُزُونِ الْخَيْرِ زَاخِرْ
مَا سَمِعْتُ الْعَيْبَ مِنْ فِيهِ تَأَتَّى
وَهْوَ مَجْبُولٌ عَلَى جَبْرِ الْخَوَاطِرْ
يَحْقِرُ الْكِبْرَ وَلَا يَرْضَى الدَّنَايَا
وَيُهَادِي الطِّيبَ بِالْأَخْلَاقِ عَاطِرْ
يَبْتَنِي بِالْجُودِ وَالْفَضْلِ الْمَغَانِي
يَنْظُرُ الدُّنْيَا وَمَا فِي الدَّهْرِ عَابِرْ

قصيدة: (فخاري أبي) الديوان/ 227.

وجْهُ الأب في عالَم باشـــراحيل هو تفاعُلات البَوح المشـــحون بعاطفة الشـــاعر، وهو يُرينا انعكاســـات التربية الأبويَّة على الموهبة الشـــعريَّة، وربما عاطفة أَلَم وحنانها تستشعر بأن الشاعر يُسلِّط عاطفتَه الشعريَّة فيما يتحدَّث به الزمن وذكرياته داخل القصيدة (الباشراحيلية) هي اكتشافٌ لعاطفة روحيَّة بسُـــلطة قوية تراها طوقًا يعوم في ســـماء قصـــائد الديوان، وكأن الأب وظِلَّ الأُم يُوجدان في أمكنة كثيرة داخل هذا الكتاب الإبداعي. فهو يعوم في دهشـــة البَوح عبر ذاكرة أبيه يستنطِقُها ليَخلُق صورتَه الشعرية التي تخصُّه، والتي سيَعرفه العالم من خلالها، مدركًا في طبيعة الإبداع أن الخلق الإبداعي بدون أبٍ يصبح هجينًا، ولهذا أشـــهَرُ شـــعراء الحضـــارات يقولون: إن الأبَ النهرُ الذي يروي لنا بكَمٍّ هائل من مشـــاعر العناوين، وهو يعكس الموهبة حين تريد أن تكون قصائدَ تُمارِس دَورًا طليعًا في المسيرة الحضـارية للشِّعر، والتي يكون فيها نتاج الدكتور عبدالله باشـــراحيل بعضًـــا من نتاجاتها التي ســـعَى فيها أن يؤسس له فيها اسمًا وأريكة ومنصَّة يكون فيها اسم والده موجودًا بطِباعة أنيقة على أغلفة كل دواوينه وكُتبه الفكريَّة الأخرى. وربمـا مقولـة جـان جـاك روســـو تحمـل ذاتَ هاجِس الشـــاعر مع ذِكرى والده الموجودة ووجه والدته

في أطياف كل ملامح روحه الشـــاعرة، فرُوسُّـــو يقول: "الأَلْفُ المُرَبُّون لا يُســـاوون درسًـــا أبويًّا واحدًا مِن أبٍ حقيقيّ."

إذَنْ باشـــراحيل في عاطفته الأبويَّة يُســـجِّل انتماءه إلى عاطفة أبيه ليعكســـها على عاطفة أبنائه، وعاطفة الأبناء لديها رؤية أخرى في عاطفة الكتاب، ونحن نمشـــي في أروقة عالَم هذا الشـــاعر الذي يُنوِّع في أحاســـيســـه داخل جســـد القصـــيدة ليجعل منها نقطةَ ضـــوءٍ تبحث عن ظُلمةٍ لتُعيد الحياةَ فيها.

الفصل التاسع

الشعر في إضاءاته الروحية والجمالية
ديوان قرابين الوداع ـ اللغة والرؤية والإيمان والفلسفة والرثاء

9

أولا- (إرهاصات القصيدة في العالم الروحي للشاعر عبدالله باشراحيل)

كُتبَ الشعرُ لأول مرة ليكون صِلة الوَصل بين الإنسان والسماء حين احتاج لتكون الأدعية أو جماليات النطق لديه وتاريخاً في مقاربة ما أعرفه عن الشعر وما أقرأه الآن في المدائح المؤثرة لروح الشاعر.

وفي ديوان قرابين الروح للدكتور عبدالله باشراحيل، أعيد مع أشعاره رؤية الشعر وبنيته، والمقارن الدائم في رؤيتي هو أن الشعر مبنى ومعنى، ورؤى الديوان في قرابينه تظهر هذا جيدا، وكذلك أنا أعرف أن الشعر في بدئه كان لصيقًا ومحفزًا ولغةً لطقوس القرابين البشرية الأولى، إنها أزلية الرؤية التي مسحت بأجفان الضوء والكلمة والشعور عند بواطن الذاكرة الإنسانية، وصنعت صدى النص الشعري الأول، هذا الذي يمضي إلى المنتهى لكي يجد في جمالية اللحظة تجديدًا للوجود.

وقديمًا كان الشعر يوازن اللحظة المطلقة في جعل البشر أكثر اقترابًا من الفردوس. وهو ما ظل قائمًا حتى

زمن متصـــوفة بغداد ودمشـــق وبخارى، والشـــرود الذي سـكن عمر الخيام ليقول: إن لحظة غيبة دائمة لا تعود إلا مع حنان القصيدة. عودة رسمت شكلًا ميتافيزيقيًّا للرؤية التي قاد على هُداها شـــعراء الحس المطلق حربَهم مع الـذين يعيبون عليهم أنهم يغيبون من أدنى لحظـة حس، وكانوا يجدون في المكان ذائقةً لبدء المعركة من خلال أناشـــيدهم لمحاكاة مَن يودون، من نقطة (دكة) الجامع وصولًا إلى النقطة المضيئة في العلا القصية.

وكان الشـــعر هو ســـهامهم التي يطلقونها إلى هناك مقيَّدين بفكرة مشـــعَّة ونداء منغَّم مع نبضـــات قلوبهم فصـــنعوا صـــيرورتهم من ذلك الإحســـاس الكبير الذي مكَّنهم ليكونوا أباطرةً لتشـــتُّت الروح المُضـــيئة بالهيام والغرام والتودُّد. إنهم يكتبونه ليكونوا مغامرين أشـــداء للتوثُّب من اللحظة الحارَّة إلى الفورة المشـــتعلة بأثر المكان والزمان والخاطرة. وهو ما صـــنع منه الفلاســـفة رؤاهم وحِكَمهم واســـتنتاجاتهم لخلق المســـار المفترض للمشي البشري الصحيح.

وبالرغم من أن الشـاعر عبدالله باشـراحيل لا يميل إلى الرؤية الصوفية ولا يؤمن بما أشيع عنها، وربما بمؤثراتها، لامتلاكه قناعات إيمانية تميل إلى أن الدين هو ربط الواقع

باللحظة السماوية ولا يحتاج إلى ما يفعله الصوفيون من إشراكٍ وتمنٍّ خارج الرؤية العقلانية حتى في أوهام الشعر وغيبوبته التي قد يحسُّها الشاعر مُصطنعةً؛ لهذا فإن الشعر لديه لحظة وجودية يفرضها دافع روحي ذاتي يؤثر ويتأثر بما حوله بشعور لا جدليةَ فيه سوى إيمان الشاعر (باشراحيل) أن الموهبة فلسفة، وعليها أن تُبدع كما تفعل الفلسفة بعاطفةِ وحسِّ وأفكار الشاعر أو الكاتب أو المتذوّق لفعل الكلمة ومؤثراتها:

عِشْ فِي الزَّمَانِ كَمَوْلُودٍ بِلَا وَلَدٍ
وَكُنْ كَأَنَّكَ قَلْبٌ قُدَّ مِنْ وَتِدِ
لَوْلَا الشُّعُورُ لَمَا اهْتَزَّتْ جَوَانِحُنَا
وَمَرَّ كُلُّ مُصَابٍ دُونَ مُفْتَئِدِ
لَكِنَّهُ الْحِسُّ قَلْبٌ هَمَّ صَاحِبَهُ
لِذَا يَعِيشُ جَمِيعُ الْخَلْقِ بِالْكَبَدِ

قصيدة: (كَبَد الحِس) الديوان/ ص 309.

هذا الحس بإنسانيته وتفكيره وظاهرته البلاغية التي تؤطِّرها موسيقى الكلمات في موهبة الشاعر (الكندي) ترينا أن الفلسفة في رسالتها الخالدة وجدت من الشعر وقود ومضة العبارة الدالَّة. وربما ما كان ينصح به العالم

النفساني بياجيه مرضاه عندما يصل إلى درجة اليأس قوله: اذهبوا إلى سونيتات شكسبير.

وأنت تقرأ نِتاجًا شعريًّا فخمًا وضخمًا مثل نتاج الشاعر عبدالله باشـــراحيل تشـــعر بأن الشـــعر هو حارس الفنار والأبدي المهيمن على شـــواخِص الزمن. وكان منذ أن هبطت حواء بمحفَّة الدمعة مع بعلها آدم، يمثل الحاجة لتكون رغبة نمت بعد حين لتصير رسمًا على جدار كهف، ثم حجرًا لبناء بيت، ثم صولجانًا لتنصيب ملك، ثم كأسًا نذريًّا لإقامة قدَّاس في المعبد. إنه إذن بدء التحولات والهاجس الأول لصناعة المعنى في الشعور. وكان أهل سومر قد تركوا مآثر وجدانهم على الألواح على شكل قصائد فولدت الأساطير، ومضت تبشر برؤيا الحاجة للوجود القائم والخالد. وحتمًا ملك أوروك (جلجامش) في سيره الطويل إلى نبتة الحياة كان ينشد شعرًا ليتصبَّر على وعورة الطريق وأهواله وبُعد المسافة.

لأجل هذا يظل الشعر يسعى لتبرير خلق الوجود بهذه الفنتازية المتعدِّدة الصور والسابحة في أنواء فضاء نتعلَّق به كبندول، ولا يشـــدنا إلى نقطة الثبات ســـوى قانون الجذب، وهو (أي الشعر) صانع ماهر لما تريد أن تنتجه دواخلنا المكوَّنة أصـــلًا من مجموعة أحاسيس قابعة في

زاويةٍ ما وتنتظر لهذه الوثوب إلى الضـــوء حيث ينتظرها عنوان عريض لمشـــاهدة قول يطلق عليها اصـــطلاحًا (القصيدة).

يشغل الشعر مساحة الذهن دون وجود كُتْلَوي، أما هو فمجرد رؤية لتخيُّل مشـــهد أو وقيعة أو ردة فعل إزاء ما نتعرَّض له، وهذه الأشـــغال لا توجد عند الجميع، لكن حافز التملُّك متوارَث بقَدرية طبيعية تنمو مع الموهبة والمثاقفة، وهناك ما يدعوه أرســـطو (المُحفز القادم من العلا) وما يعتقده محيي الدين ابن العربي أنه (المؤثر الساطع، وجوده فن، وصناعته جنون، وفي النهاية نحن له بســـجود لأنه مصـــنوع وليس مطبوعًا، ومن صـــنعه الذي أوجد فينا هذه اليقظة) وحتما هو يقصـــد باليقظة القدرة الإلهية كما يقصد ذلك الفيلسوف أرسطو.

تلك هي الرؤية في مختصـــرها، وما يتمنى إيقاظها في دواخلنا شـعر (باشـراحيل)، فهو في الكثير من روحانيات قصـائده لا يتيه عنه التفكير بحقيقة أن الحياة تُعاش لتكون عظيمةً وكريمة ومُبدعة، والتفكير بها شـــعريًّا هو لحظة التمكن من صـــناعة ضـــوء القصـــيدة لتتم إنارة العالم كما يفعله شـاعرنا (باشـراحيل)، تلك اللحظة التي تُدركنا قبل أن نُدركها، وتَســـكننا قبل أن نســـكنها، وتهيم بنا قبل أن

نهيم فيها عبر هاجسَيْن مُهمَّيْن يشتغلان في شعره هما الذاهب والقادم:

رُبَّ سَعْدٍ قَادِمٍ يَجْلُو أَسَانَا
وَرَبِيعٍ جَاءَ يَهْمِي بِالطُّيُوبِ
رَجْعُ جَنَّاتِ نَعِيمٍ ضَاحِكَاتٍ
فِي رِيَاضِ الْأَرْضِ بِالْحُسْنِ الْخَلُوبِ
وَثَوَانٍ نَاعِمَاتٍ بِالْأَمَانِي
تَنْشُرُ الْأَفْرَاحَ فِي كُلِّ الْقُلُوبِ
تَسْأَلُ الْأَيَّامُ أَعْيَادَ التَّصَابِي
عَنْ حَبِيبٍ كَانَ فِي الدُّنْيَا حَبِيبِي
أَتَمَلَّاهُ عَلَى الْبُعْدِ وَلَمَّا
أَخْلَفَ الْوَعْدَ أَتَى يَوْمَ الْكُرُوبِ

قصيدة: القادم/ الديوان/ص 259.

وهكذا عند خيال شاعر مثل باشراحيل فإنك لا بد أن تذهب لأحاسيس كونيَّة الشعر لديه، فالشعر عند (عبدالله محمد باشراحيل) يُرسي أنماطًا من التخيُّل تتعدَّد ألوانُها وأغراضُها، ولكنها في النهاية تقع ضمن دائرة الشعاع الإلهامي للخيال البشري (والشعري) الذي تعودنا على

اكتشافه ونحن نحلل كوامن النص (الباشراحيلي) كظاهرةٍ حسيَّة تقرأ القادم والماضي معًا، وتنجح في مَزج الرؤَى داخل بِنية النص وهو في لحظة الولادة والتحضير له، أو في لحظة أن نراه مطبوعًا بصحيفة أو ديوان شعر، ومن خلاله نقدر على استحضار لحظة الغياب والتمتُّع بما تملك من جمالٍ في بريق المعنى وموسيقى الكلمة، وفي هذا المدار المتخَيَّل نضع أنشودةَ المطر لبدر شاكر السيَّاب أنموذجًا، فهي واحدة من بواكير الحداثة الشعريَّة العربية المتميِّزة والمليئة بشحنة العاطفة الجديدة، وربما هي بهاجسها الوجودي مثَّلت واحدةً من مقتربات صحوة الحداثة؛ لِمَا حفلت القصيدة بشكلها الجمالي وموسيقاها العميقة وروحها التي رسمت في مأساتها الصورة المُستعادة للحُزن الإغريقي أو دمعة أيوب وحُزنه الأسطوري.

ليس للشعر وطن رغم أنه أكثر بقعة في الكون تحتوي على خرائط لتضاريس لا تُحصَى، وبالرغم من هذا تشعر أن كائنًا كالشعر ربما أتى في لحظة بدء كوني من كوكب آخر؛ ليسكن الأرض، ويرينا شجن أن يرتقي المرء بوجوده إلى مكان آخر غير هذا المكان المحصور بين قُطبين.. قطب في الجنوب وقطب في الشمال.

يأتي الشعر عندما نُصاب باستباقٍ ما لحقيقة أن نكون تحت تأثير هاجس الشعر و الرغبة للكتابة وليس القول، وتراهم (أي الشعراء) ينساقون لنمط معيَّن من شعورٍ لا يتجانس مع الرابط الحياتي، أي أنهم يَهيمون بفضاءات تتحرَّر فيها إحساسات الواقع لتبدو شيئًا آخر، فيه من البوح والارتقاء بالمكان والكلمة الشيءُ الكثير، إنهم يتلون الموسيقى من الأفئدة فيما تلى الموسيقيون الموسيقى من آلات متعدِّدة، ولهذا كانت روح الشعر تبدو مثل هيجان الجسد حين تتحرر من ذاكرة اللحظة لتنصبَّ كلماتٍ وبحورًا على الورق، ومتى تنتهي مودَّة التواصل بين الرغبة البعيدة واللحظة الأرضية تنتهي القصيدة إلى خاتمة قد يدخل عليها فيما بعد تصحيح وتعديل وحذف وإضافة، لكن لحظة التوهُّج والخلق الحقيقي مرَّت، ولن تعود سوى مع إرهاصات الشاعر (باشراحيل) وقناعته أن الذهاب إلى الأبعد لا بد أن يتم عن طريق عقل وإلهام وطاقة ما تمتلكه دواخلنا.

وما بعد ذلك فلكل مسارٍ محطة يتَّكئ عليها بعد رحلة التعب، ورحلتي مشتغلة بهيام اللحظة، ومستعيرة شغاف فم الأنثى، وساعية لتكوين إمضاءات الوصل على جسد الجملة، فما يقوله الصامت يردده ألف لسان:

سَـــوْفَ أَبْقَى مُمَجَّـدًا فِي الْعُصُـــورِ
عَـالِيًـا بِـالشُّـــمُوخِ مِثْـلَ الصُّـــقُورِ
فَوْقَ صَـرْحِ الزَّمَانِ شَـيَّدْتُ صَـرْحِي
وَبِشِـــعْـرِي مَـزَجْـتُ عِـطْـرَ الـزُّهُـورِ
أَنَـا إِشْـــرَاقَـةُ الشُّـــمُـوسِ وَإِنّـي
أَغْـرِسُ الْـحُـبَّ فِـي الْأَنِـيـسِ الْـكَـثِـيـرِ
عِشْـــتُ عُمْرِي أُذِيبُ حُزْنِي بِسَـعْدِي
وَأُشَـــيِّـدُ الْـعُـلَا وَأَبْـنِـي قُصُـــورِي

قصيدة: النُّذر/ الديوان/ ص 380.

لا أعرف لماذا وجدت في النص أعلاه أن الإصـــرار على جعل البقاء ضـــمن ممكنات ما يوفره الشـــعر لنا أن نعلن عن أنفسنا بأننا صُنَّاع وعي وفرح، ولكن مع هاجس اسمه الإيمان، وأعتقد أن تلك هي من أهم رؤى وقناعات عبدالله باشـراحيل في حياته، لهذا فإن صـوت الشـعر لديه يأتي من صـوت ضـوء السـماء القادم إلى قلبه، ليصـنع منه مدائح كونية عرفانية وفلســفيَّة وأفكارًا بقناعة أن الحديث مع الله عبر قصـــيدته هو ذاته الحديث مع الله عبر نبض قلب، وكأنه يُسـامر معنا شـعورنا بالمتعة ونحن نقرأه وقد

جعل الإيمان والتحدُّث مع نور قلبه ونور الفضـــاء الذي أمام عينيه هو ما يجعله قانعًا بأن شـــاعريته ليس المكان الذي تقف عليه قدماه فقط، وإنما هي من تعتلي الغيمة صـــهوةً لجواد الريح، وتســـير إلى الأبعد مع موهبتها وثقافتها وإيمانها، والإيمان عند باشـــراحيل كما نراه في أسفار أشعاره هو ثوابت العقل والروح، وما بينهما يضع لنا شـــراحيل مُدُنه وألوان لوحات صـــوره الشـــعرية وما يسـكنه، فتراه إن توسـعت لديه الآفاق فإنها سـماء، وإن ضاقت فإنها التقرُّب إلى الله من أجل نيل الفرج:

يَـا مُـعَـافًـى مِـنَ الـرَّدَى صَـــانَـكَ الْخَـالِقُ الْعَظِيمُ
إِذْ تَـوَلَّاكَ فِـي الـدُّنَـا يَغْتَـدِي حَوْلَـكَ النَّعِيمُ
فَـاحْـمَـدِ اللَّهَ فِـي الْـبَـلَا تَـنْـبَـرِي كُـلَّـهَـا الْـكُـلُـومُ

رؤية شعرية تتعامل مع الوجود بهواجس ما يسكن في روح الشـاعر من أيامٍ ورضًـى بالقدر ليكون إبداعًا وفعل خير ومرحمة ونوايا حجة وســفر، وكل تلك الممكنات هي من أيقظت في ذات الشاعر تلك الإرهاصات الإيمانية التي توارثها من قناعات آباء وأجداد ســجَّلوا في المكان ظاهرة انتماء رائعة، فكان الإيمان عند باشـــراحيل صـــفة لانتماء الذات إلى ذاتها والروح إلى خالقها، وفي المقدمة

النثرية لديوانه الشـــعري (قرابين الوداع) نماذج يحلل فيها عبدالله باشـــراحيل قناعة الشـــاعر أن يكون مؤمنًا في أول هواجســـه، ثم يذهب ليُدوِّن أفكاره، وخواطره، ورؤاه، وقصائده.

ثانيا- (لغة الإيمان وقناعتها الشعرية)

الإيمان عند باشـــراحيل يتجسَّـــد في العشـــرات من قصـــائده بصـــيغة المُناجاة، فهو في هذا يميل إلى إظهار الوحدانية في جعل الشـعر بعض فرائض الاقتراب من الله والتعبير من خلالـه على أن مـا يُكِنُّ قلمُـه وفمُـه هو مـا يسـكن قلبه وفي كل قصـائده يثير الشـاعر قضـية الانتماء أولًا بالعقل والقلب والهاجس الإيماني والإنساني، فيكون الله قريبًا إلى قلبه وقصـيدته، ويمنحه ضـوءًا آخر لموهبته، فنراه ينتج لنا تـدفُّقًا مطريًّا من هطول جميل وســـحري لقصـــائـده ذات النَّفَس الإيمـاني، فتظهر لنـا بمكنون مـا يســكنه وفلســفة اللحظة التي يبتغيها من خلال قصـــائد الشـــعر ودلالته الإيمانية التي تظهر طموحًا روحيًّا لدى الشـاعر بأن السـعي في الانتماء إلى الله هو ذاته السـعي في الانتماء إلى العالم بجهاته وأمكنة البوح فيه وأظهر صوت الشـــاعر ومعرفة مصـــادر ثقافته وأســـرار موهبة ومســـاحة الإيمان التي تغطي ملامح وجهه، وهذا ما يفعله الشـــاعر عبدالله باشـراحيل تمامًا في جعل المقارب المادي لصـيقًا بالمقارب المادي حتى لا ينزلق العقل إلى الجادة الأخرى فتضـــيع معه كل جماليات الشـــعر ومكانة الموهبة، لذلك

فإن الفلسفة في أفكار هذا الكتاب الشعري هو الاتحاد حمدًا وشكرًا مع مدائح الضوء الإلهي الذي يبتغيه الشاعر ليكون فوق حاسَّة الموهبة، وكأنه يسبح في هاجس الإيمان بتيه لحظة التعشُّق في محبة الذات الإلهية التي منحته صفة التميُّز ليكون شاعرًا وأديبًا مفكرًا ورجل أعمال ناجحًا. جنته هي صدق الخيال والإيمان، فإن وصل الخيال إليها يعتقد الشاعر أنه يصل مبتغاه ليكون هناك الإنشاد السرمدي الذي يلف بعطر الكلمات الجهات كلها، صوت الشاعر وهو يفترض الجنة لروحه مكانًا أزليًّا وقد ينالها لأنه مؤمن ورجل خير وسادن كلمة شاعرة:

تَخَيَّلْ أَنَّنَا فِي عَالَمِ الْجَنَّةْ
وَقَدْ أَعْطَى مُنَانَا مَنْ لَهُ المِنَّةْ
تَخَيَّلْ جَنَّةَ الْفِرْدَوْسِ مَنْزِلَنَا
فَمِنْ رَوْضٍ إِلَى رَوْضٍ بِهِ الْجِنَّةْ
خَيَالُ الْمَرْءِ صَوَّرَهَا كَمَا يَهْوَى
وَإِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ وَصْفَهَا إِنَّهْ

قصيدة: (وصف الجنة) الديوان/ ص 63

إنها سلطة الإيمان تسكنه وتجعل بَوح الشعر لديه جنَّة لأرض الكتابة إلى حين أمنية جنة العالم البعيد في العلا، والتي مَثَّلت في عوالم الشاعر إرهاصاتٍ إيمانيةً ارتدته كما ترتدي الصحراء عاشقها كعباءة للمدى المفتوح، وكأن الإيمان هنا كما يشعر الشاعر إنما هو انتماء الذات إلى ذاتها، وهو يشعر (باشراحيل) أن الإيمان حكمة وطقس حياتي لا يستغني عنه الشاعر ليبقي روحًا داخل القصيدة، وعبر الإحساس بعظمة الله والنبي صلى الله عليه وسلم يرينا شعر باشراحيل محطات من تقوى عاطفته ليكون مع السماء، ويشعر أن طاقتها عظيمة لتمنح الشاعر رؤى الشعر وصوره وأزلية مباهج الكتابة.

وبالفعل فإن الإيمان هو صنو للفلسفة التي استعان الشاعر بمعارفها وقرأ العالم ناثرًا وشاعرًا، وكل تلك النتاجات إنما هي ثمرة معرفية وروحية وحياتية من أنوار ما يسكنه من إيمان الشموس التي في داخله وأقمار ليل القصيدة وبوح عاطفة التوحيد والتفكير بمصائر الآخرين وأصحاب الحاجات والتنظير بعاطفة العالم والمتعلم مكَّنت باشراحيل لأن يحمل الهاجس الأدبي لبيئته وتراث أهله وقراءات لتكون محتفية بكل أمكنة الأقاصي التي أسمعها صوته عبر القصيدة وطروحات الفكر والرأي،

لكني هنا أتسلل إلى مدى قناعاته بالكون الذي يشعره سديمًا يعكس أضواءه على روحه ويفجر في أعماقه مكامن الكلمة الفسيحة والمضيئة والتي تحمل معناها الكبير، في روح الشاعر وتقوده إلى صنع كل تلك المدائح لصوت الإنسان الحر العارف بقدرة الضمير ليكون كريمًا ومبدعًا ومتواصلًا مع الحياة في كل محطاتها. وقد جعل العين للمشاهدة والروح للكتابة، وبين الاثنين أرانا الشاعر الدكتور عبدالله باشراحيل تراثًا من نظم عاطفته وهي تؤسس لقُرَّائه ومُحبّيه حدائق النور المشجرة بربيع الكلمات، والتي يُلوّنها هاجسه المؤمن الذي تعلمه من والديه صلاةً وقراءةً وحفظ القرآن، ثم تذهب لينهل من المعارف الأخرى فيصل إلينا شِعره روعةً في مباهج المعاني والأداء، وسنفترض أن الإصغاء لصوت الشاعر هو إصغاء لجمالية هذا المؤمن الذي سبح في فضاء القصيدة، وكتب أدعيته، وتقارب في المودَّة آيات شكر لنِعَم الله عليه ولِبر الوالدين.

صورة المُفردة المَهيبة والنورانية (الله) مثَّلت لفظًا للجلالة مُقاسَة بمعانٍ بلاغية وتربوية وفلسفية ولغوية وحياتية لا تُحصَى حين تعامل الشاعر عبدالله باشراحيل مع روحها كمُفردة ذات كيان مهيمنٍ وهادٍ إلى الخير

ومؤثِّر في أعمق ما فينا من تفكير، لهذا فإن التراث الشعري لباشراحيل يحتوي الكثير من تلك النوافذ الاستشراقية (من شرق شمس الشعر في روحه) التي تُقرِّب قلب الشاعر إلى المنابع التي استقى منها وجودَه وثقافتَه وطوَّر فيها موهبتَه. فكان الله في معظم ما أتى إليه في مباهج الحمد وأناشيده الروحانية، هو نقطة البدء لتحريك كل راكد في هذا العالم صوب منابع الحكمة والصلاة والهداية:

لَا شَيْءَ أَعْظَمُ مِنْكَ يَا رَبِّي
وَالْخَلْقُ كُلُّ الْخَلْقِ كَالْحَبِّ
تَذْرُوهُمُ كَالنَّبْتِ فِي الْأَرْضِ
وَالطَّلْعُ نَبْضُ الْخَلْقِ بِالْقَلْبِ
أَرْضٌ غَشَتْ بِالْإِنْسِ وَالْجِنِّ
وَبِكُلِّ مَخْلُوقٍ مِنَ التُّرْبِ
يَا رَبِّ قَدْ أَبْدَعْتَ مِنْ عَدَمٍ
هَذِهِ الْحَيَاةَ بِمَاطِرِ السُّحُبِ
أَعْجَزْتَ هَذَا الْخَلْقَ بِالْخَلْقِ
وَاسْتَعْظَمَ الْإِبْدَاعَ ذُو اللُّبِّ

كَـمْ يُـذْهَـشُ الْإِنْسَـــانُ بِـالـدُّنْـيَـا
لَـوْ شَـــاهَـدَ الْـجَـنَّـاتِ فِـي الْـغَـيْـبِ

قصيدة: (العظيم) الديوان/ ص 353.

وما في القصيدة أعلاه ليس قراءةً لمهابة صانع الخلق فقط، إنما هو حديث للروح وهي ترى بعين الرسام والشاعر والفيلسوف، مشاهدة على مستوى الوعي بقُدرة الله على أن يكون معنا في كل طرُقات حياتها، ليُعجِز فينا هذا الخَلْق بالخَلْق، فتشعر أن في ترادف المفردات قدرة شعريَّة في جعل المعاني أكثر طاقةً وإيجابية لتقريب الروح المؤمنة من مُنى أحلامها وهي تنظر وتشعر بعظمة الكون وخالقه.

عند الشاعر عبدالله باشراحيل يأخذ الإيمان حَيّزه الأوسع، فتشعر أن ثمة ظاهرةً وجدانيَّةً تربط بين الإيمان الذي في القلب، والآخر الذي ينظر به إلى موجودات الكون حولَه وهو إيمان الروح، وتلك الصلة عكسها بقناعات المحبَّة والحزن ولغة الفقد المؤلمة التي كان يرسلها إلى مَن يُغادرون بعيدًا عن مساكن القلب، وأهمُّ قناعةٍ سكنت إيمانه هي قناعات القَدَر ومشيئته، وتلك القناعات احتاجت من الشاعر الاستعداد إلى لحظاتٍ لم

يَعِشها بحياتِه، لحظات صنعت متغيّراتها الجديدة، وأهمها أنه لم يَعُد يشـمُّ عِطر أبيه في البيت ولاحقًا غاب عِطر أُمِّه الـذي يتخيَّلـه آتيًـا من وردة حنـان خـالـدة في رؤى هـذا الإيمان الذي اكتســـبه من تربية المنزل والتي قطباها هما الوالد والوالدة.

ربط الإيمان في تفكير باشـــراحيل بتلك المتغيرات هو ما أظهرته جماليَّات تلك المَراثي التي أحســـن في جعل إيقاعها معبرًا وحقيقيًّا، ومَن يقرأ ســـيُدرك تمامًا أن تلك القرابين المُلوَّنة بشتَّى موضوعات الحياة قد كُتبت لتجعل الشـعر إحسـاسًـا متفردًا، ويحق له أن يشـاهد العالَم بنظرة مختلفـة. ومن يَقرأ في لغـة الرثـاء ســـيُدرك أن الإيمـان بمتغيرات الحياة وقُدرتها وحتميَّة ما ســـيكون لم يغير في قناعات الشـاعر شـيئًا وقد أشـار إلى ذلك في مقدمته، بأن الرحيل عن هذا العالم حتمية أزليَّة لا بد أن تُرافق تاريخ الشـــاعر إلى نقطةٍ كونيةٍ ما، ومِن ثَم ســيكون ملكًا للأزل وقدر الســـماء وما تركه من إنجاز، وهو مَن يُبقيه حيًّا في تناسُـــل الأجيال وتقادُم الزمن. فبين قناعة المؤمن وحُزن المَرثيَّة ســأكتشــف أني أقرأ شــاعرًا تســكنه قوة الإرادة، ومحبة الإفادة، وصنعة الريادة، وحُسْن مَسك شراع سفينة الشـــعر والقيـادة، وربمـا تلـك المُحزنـات من معلَّقـات

الديوان (قرابين الروح) قد شـــكَّلت فيوضًـــا ملوَّنة من قراءات العقل والحس إلى تلك القدريات التي يســـميها البعض مصـائب، لكن الشـعر يُطلِق عليها اسـم القَدَر بما يريده الله، لهذا حتى في حزن قصـــيدته ورثائه تجده يقرأ الحزن برؤية العقل وينادمه بجلب الشمس إلى الظل ليرى القارئ تلك الكلمات المؤمنة التي يشكل نحيبُها الداخليُّ شيئًا من أيقونة الشاعر بأن صدى كلماته ينبغي أن يُسمع في كل مكان حتى عندما يرثي أعز الناس لديه (الأب والأم) ومن فقدهم في شراكة العمل والحياة والأقارب.

وربما ما ذكره الناقد محيي الدين صـــالح في دراســـته القَيِّمة عن شـــعر الرثاء في التجربة الشـــعرية لباشـــراحيل والتي كانت بعنوان: (الرثاء في شـعر باشـراحيل "دراسـة أدبية") فإنها على قيمتها وطروحاتها تؤكِّد ما ذهبنا إليه في ربطنا بين الإيمان كقناعة، والحزن كهاجس، ويســـتغله الشاعر رغم أساه ليبقَى مرتبطًا مع العالم الذي يذهب إليه مفكرًا وشـــاعرًا ورجلًا مُمتلئًـا بـالتجربـة والحكمـة والإنسانية. ومن قول الناقد محيي الدين صالح ما نصه:

((وبَاشـــراحِيلُ لا يَكتَفِي برِثاءِ الأحبابِ الذِينَ رحَلُوا عنـه، بَـل يَرثي البِلادَ، والقِيَمَ، والآمَـالَ، والمَعـانِيَ، والفَضَائلَ، وكُلَّ غَائِبٍ يَفتقِدُه، كَمَا أَنَّه يَرثِي الزَّمَانَ أَحْيانًا،

ولَا يَستَنكِفُ مِنْ أَنْ يَرثِيَ نَفسَه إنْ لَزِمَ. واتِّجاهاتُ الرِّثاءِ عِندَه تَستحقُّ التأمُّلَ، ولا أقولُ التوقُّفَ عندَ كلِّ جُزئيَّةٍ، والعَاطِفةُ الصَّادِقَةُ والحِسُّ الدِّينِيُّ عندَ الشاعِرِ لهما حُضُورٌ قَوِيٌّ يَجعَلُكَ تَحترِمُ أُطرُوحَاتِه ورُؤاهُ.

أمَّا الشَّخصياتُ التي يَرثِيها باشرَاحِيلُ، وتَوجُّهاتُهم الفِكرِيَّة أو الأَدَبيَّة، ومَكانَتُهم في المُجتَمَع، فذَلكَ أمرٌ له مَدلولٌ رَاقٍ، ويَجبُ تَوضِيحُه في تَفصِيلٍ مُناسِبٍ، وكَذلكَ هناكَ أثَرُ البِيئَةِ، والتَّنوُّعُ الأُسلُوبِيُّ، وخُصوصِيَّةُ المَضامِينِ، والقَامُوسُ اللُّغويُّ، والبُحورُ المُنتَقاةُ، والقَوافِي المُناسِبَة لِجَوِّ القَصيدَةِ... فكُلُّ هَذِه جَوانِبُ لا نَمُرُّ عليها مُرُورَ الكِرامِ، خَاصَّة أنَّنا أمامَ شَاعِرٍ جَعَل الوَفَاءَ حَجَرَ الزَّاوِيَةِ في كُلِّ إبداعَاتِه، وتَعلَّقَ قَلبُه بكُلِّ مَن رَأَى أنَّه يَتَّصِفُ بالوَفَاءِ، وفِي ذَلِكَ يَقولُ:

إِنَّ الْوَفَاءَ رِدَائِي كَيْفَ أَخْلَعُهُ

وَقَدْ كَفَانِي وَإِنْ ذَمُّوا وَإِنْ مَدَحُوا

ثالثا- (ملامح حزن الشاعر في دمعته لوالدته)

يتحدَّث الدارسُ لشِـعر باشـراحيل ومرايا دموع مَراثِيه التي تَعكِس ضـوءًا لذيذًا من بَوح أحزانه وهي تتفاعل مع أحداثٍ مُعاشةٍ صنعتها قدَرية الحياة وحقيقتُها ما سننتهي إليـه نحن جميعًـا، ومن بين مراثي الأب والأقـارب والأصـدقاء وشُـهداء قضية الدين وفلسـطين، بين كل تلك الأحزان في مراثي دمعة باشراحيل الشعرية، اخترت مراثيه للراحلة الفاضلة والدته.

ففي مرثياته عن والده تظهر بوضـوح الكثير من عاطفة الإنسـان وهو يرسـم في حزن بهجة الروح ذكرياته مع إنسانة صنعت منه كائنًا يتوهَّج فيه ضوء الكلمة، وهي مَن غيَّرت في الكثير من مسـارات حياته، وقد عاصـر كل مشـاعر الحنين في محطَّات حياتها، وفي لحظة يشـعر أنها تُصـاب بوهن زمن أعمارنا، وعند خاطرها يشـغله وعي ما يبـدع فيه فيكـافئها بخلود ذكرى الكلمـات التي تُصـبح مدائحَ وأناشـيد شـعر لقلب سـيدة يقول عنها لسـانُ حال القصيدة: إنها قمر البيت.

لقد شـكَّلت الأم في عالم شـراحيل قارَّة ثامنة من حنانٍ يتصـل بعاطفته مع سـماء العاطفة الروحانيَّة في قلوب

الأمهات اللائي أصـــبحت الجنة تحت أقدامهنَّ، ولهذا تجده في محادثاته الشـــعرية يوازن بين نبض قلبها وقلبه، ويتـذكَّر معهـا أدعيتَهـا ومواقيـتَ صـــلاتهـا وتعـاليمَهـا ونصـــائحَها ويتكلم إليها بعاطفةٍ عاليةِ المســـتوى من مُـدَّخرات موهبتـه، وتلـك الفطنـة البلاغيـة، حتى عنـدمـا يسـاوره القلب على صحة والدته قبل ارتقائها الأبدي إلى سماء خالقها.

كتب الشاعر عبدالله باشراحيل عن جَلال الوالدة بجُمَل مسكونةٍ بعاطفة خاصَّة ليُشعِر الآخر الذي يقرأه أو يدرسه أن التعامل مع الأم هو رؤية أخرى في المَســـيرة الروحيَّة للشاعر أو الأديب أو عالِم الذرَّة أو الاقتصاد، لذا مَن يقرأ مدائح الأم في شعرية باشراحيل يكتشف أن الشاعر بدون هذه العاطفة يفتقد الكثيرَ من خصـوصـيَّة أشـعاره وموهبته ومُنجزاته؛ لهذا فهو يكتب عن والدته بعيون كثيرة تبدأ من عين الطفولة إلى عين نضـــوج الحياة لديه، وهو يســـكب دموعه حين يواريها التراب، ومع تلك اللحظة يســـتمرُّ شـــريطُ الذِّكريات يوثق عاطفةَ قلب عبدالله باشـــراحيل ويملأ أواني قلبه بأمطار الحنان والذكريات من أجفان تلك الوالدة الطيِّبة. وربما قبل أن تهبط أمطار الشـعر تأتيه

من صدى تلك الآية أحاسيس أخرى تتجانس في مودتها مع الذِّكْر الحكيم من سورة لقمان:

((وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُ وَهْنًا عَلَى وَهْنٍ وَفِصَالُهُ فِي عَامَيْنِ أَنِ اشْكُرْ لِي وَلِوَالِدَيْكَ إِلَيَّ الْمَصِيرُ * وَإِنْ جَاهَدَاكَ عَلَى أَنْ تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا وَصَاحِبْهُمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفًا وَاتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَيَّ ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ.))

لهذا فمَن يَقرأ ما كتبه باشراحيلُ عن أبوَيْه سيكتشفُ تلك المساحةَ الإيمانيَّة التي زرعاها في قلبه منذ لحظة الوعي الإبداعيّ والحِسّي لديه وإلى رحيلهما الأبدي وما بعده، حيث لم تتخلَّ مشاعره عن إبقاء تأثيرهما في حياته الإبداعيَّة والمِهنيَّة والاجتماعيَّة. وفي مُجمَل النتاج الإبداعي للشاعر الدكتور عبدالله باشراحيل سنرى أن أنوار ذكرى الهاجسَيْن (الأم والأب) تشكل حيّزًا مضيئًا في فضاءات الأحلام المُبدعة التي حرص الشاعر على جعلها واقعًا مقروءًا، ولدى مُحبّيه وجماهيره عبر عشرات الكتب الشعرية والنثرية، وربما في كل موضوع تجد انعكاساتٍ خَفيَّة لتلك التأثيرات الأبوية الحنونة والمُبدعة والإنسانية. ومَن يعيش عذوبة قراءة قصيدة أمي في ص 127 من ديوان قرابين الوداع، سيكتشف تمامًا تمازُجَ

موسيقى قصيدة الروح مع عاطفة الأم لتنتج لنا صدى غرابة الكلمات حين تنسجم مع الذكريات وتتحوَّل إلى إيقاعاتٍ ناعمةٍ من حنين غريب تؤثثه الطاقة الإبداعيَّة المُميَّزة لشاعرٍ مثل عبدالله باشراحيل، فهو يوقظ لذائذ حنين روحه مع طاقة عميقة فيه تجاه هذا الكائن المُضيء بأنوار الخير والحب والجمال وقدسية أداء فرائض الله، فهو يُحدِّثها بنغمٍ من كلماتٍ مُنتقاةٍ بعناية ليَنظُمها في روعة الشعر إحساسًا عاليَ الدرجات وليتصاعد معه الإحساس في بِنية القصيدة وغنائيتها وجماليتها حتى تَشعره يعود معها إلى كل محطات الزمن الماضي والحاضر والمستقبل:

أُمِّي هِيَ الْحُبُّ كُلُّ الْخَيْرِ يَحْكِيهَا
يَا مَنْ أَعَظِّمُهَا قَدْرًا وَأَفْدِيهَا
يَا مَنْ تَحَمَّلْتِ بِي وَهْنًا عَلَى وَهَنٍ
وَعِشْتِ تَسْقِينَنِي حُبًّا وَتَرْفِيهًا
كَمْ ذَا تُسَاهِرُ عَيْنَاهَا صَدَى أَلَمِي
تَوَدُّ كُلَّ سُقَامِي أَنَّهُ فِيهَا

هِـيَ الْـعَـطَـاءُ بِـلَا مَـنٍّ وَلَا ثَـمَـنِ
هِـيَ الْـوَفَـاءُ فَـقُـلْ لِـي مَـنْ يُـوَفِّـيـهَـا
رَوْضُ الْأَزَاهِـرِ أَنْسَـــامٌ مُـعَـطَّـرَةٌ
تَسْـــرِي تُبَلِّـلُ بِـالْأَنْـدَاءِ صَـــادِيهَـا
فِي وَجْهِهَا تُشْـرِقُ الْأَصْـبَاحُ ضَـاحِكَةً
وَعَـيْـنُـهَـا كَسَـــمَـاءٍ جَـلَّ بَـارِيـهَـا

سِحر هذه القصيدة أنها كُتبت قبل مواسم الرثاء عندما كانت والدةُ الشـاعر تفيض حياةً ورحمةً وروضًـا عاطرًا، ولكنها (القصيدة) تشعرنا بمدى تعلُّق روح الشاعر بروح أمه، بل جاء النص (أمي) في 13 بيتًا منه، يشـعرنا أن السنوات التي عاشتها أسطورة الأم في البيت هي سنوات أمجاد لروح كـل أهـل البيـت، ومتى تتوقف الحيـاة في أجفان تلك الأسـطورة حتى يعود صـدى الدمع يشـدو مراثيه الحزينة للسيدة التي كانت تأتي حاجة الجميع إليها كضـرورة من ضـرورات الحياة في أحلامهم وطموحاتهم وأزمنتهم:

الْـكُـلُّ حَـوْلَـكِ يَـا أُمَّـاهُ مُـقْـتَـبِسٌ
أَنْوَارَكِ الزَّهْرَ يَا (مِصْـبَاحُ) فَاضْـوِيهَا

كل تلك المدائح المنيرة في لذة الشعر بين بَوح وروح تستقرُّ الآن في نشيد الرثاء لتلك الوالدة (الرمز) عندما تعيش في وجدان الكلمات صورة للسيدة الفاضلة والمؤمنة لتغطيها سحابة الشِّعر بأمطار الرحمة وكلمات الوفاء والحنين، ففي قصيدة (ورحلت أمي) يكتب عبدالله باشراحيل واحدة من أجمل مراثي قلبه، ويولي صور النص عناية خاصة ترتقي إلى نوع مميز من هالات الجمال المدَّثِّر بأغطية من ريش حمامات الزمن الطائر في دمعة الذكريات لتشعر أن قصيدة (ورحلت أمي) ص/ 241 من ديوان (قرابين الوداع). أنها تلتصق بغلاف الديوان لتؤثِّث مع العنوان ثيمةً عظيمةً للوفاء الذي يحمله الشاعر لوالدته الراحلة قبل عامين من صدور هذا الكتاب (قرابين الوداع).

بانوراما هذا الوداع تسجلها بإتقان تفاصيل الرثاء في هذا النص. رؤية ملحمية وقدرة روحانية على مقاربة تأثر الدمعة بسيل ما يتذكره الشاعر من زمن أمه، فيشعر به زمنًا سرمديًّا تحاكيه القصيدة بمطر من دمع وذكريات وكلمات، ويشعر معها القارئ هنا أن كمية الحزن في هذا النص تُغطي فضاء الديوان كله، فالعبارة (ورحلت أمي)

أتت بعفوية اللحظة التي أمسكتها موهبة الشاعر وهطلت معها دموعًا على حنين الوجه الغائب.

إنها قصيدة المبكي المغني روحيًّا في ظل قصيدة من 29 بيتًا تشكَّلت عاطفتها ببرق حزن المرثية التي سكنت أيها أحزان الشعر والشاعر وصاغتها بقلائد البكاء الخفي نَوحًا عذبًا يؤشر لدينا أن الشاعر عبدالله باشراحيل هو شاعر اللحظة التي تصنعها موهبة الحس والوفاء والقدرة الكبيرة على ضبط مواقع الكلمة حيث تأتي من عمق ما يمتلكه من حسٍّ وعاطفة وإبداع، وليس من عُمق محبرة الكتابة.

أَشَدُّ الْحُزْنِ مَا سَكَنَ الْفُؤَادَا
وَأَكْثَرَ هَمَّ صَاحِبِهِ وَزَادَا
رَحِيلٌ أَمْ فِرَاقٌ أَمْ وَدَاعٌ
فَإِنَّ غِيَابَ مَنْ عَزَّ افْتِقَادَا
وَمَا الدُّنْيَا وَإِنْ طَابَتْ لِحَيٍّ
سِوَى الْأَرْمَاسِ وَالتُّرْبِ الْوِسَادَا
يُحَدِّثُنِي الْحَنِينُ إِلَيْكِ أُمِّي
حَنِينُ الِابْنِ كَمْ كَانَ اعْتِيَادًا

هذا هو شكل الرثاء في عاطفته الجميلة والمؤثرة التي أصبحت عند دارسي شعر الدكتور عبدالله باشراحيل واحدةً من النوافذ الجمالية لحُزن الروح في عالمه المتسع الرؤى والشواهد والنوافذ، وهي تطل على جمالية من الحزن، يحسن الشاعر نَسجَها عباءةً لمرثيَّته، وتتحوَّل مع إيقاع نبض قلبه إلى نشيد وفاء ووداع لوالدةٍ عظيمة في قدر تواريخه ومنجزاته. إنها مرثية تسع لحظة الوجدان بعمق ما يؤثر فينا كقُرَّاء وأصدقاء وقريبين من ظلال الشعر والشاعر.

الصورة في هذه القصيدة هي المقدار الإبداعي في قُدرة شاعر مثل عبدالله باشراحيل يؤدي دورًا روحيًّا وحضاريًّا وتربويًّا وإبداعيًّا في مُعظم أغراض الشعر التي يتناولها، ومنها أناشيد رثائه التي ارتدت غيوم حزن عميق، ولكنها مدوَّنة بلُغة بليغة وعاطفيَّة، وتقترب من الروح بعُمق المعنى مرَّةً وبالسهل الممتنع مرة أخرى. وفي قصيدة (ورحلت أمي) نقرأ هاجس الرثاء بشكله الذي أحسبه تداركًا وجدانيًّا للحظة التي توقعها بحزنه يوم مرضت والدته، وهناك أكثر من نص للشاعر يدعو الله بسلامتها وعافيتها، لكنها متى رحلت أيقظ الشاعر خطوات الوجدان وجعل دمعته حِبرًا لقصيدته، فأتذكر ما

يكتب عن بلاغة روحه في رثائها لأعزَّتها، ولهذا فإن الوعي هنا يستمد من لحظة الفقدان شيئًا من معاناة الروح، لكنه حتى في حزن تلك المعاناة يسيطر على اللغة، ويبقَى إلهامه يسجل من تفاصيل تلك اللوعة لغةً رائعةً وعبارات تؤكد لنا أن حُسن الشِّعر وجماله قد يظهر جليلًا أيضا في حزنه، فأعود ثانية إلى ما تحدث به الناقد محيي الدين عن قُدرة عبدالله باشراحيل في جعل الرثاء بنية أدبية لنص يستحق القراءة والاندماج معه روحًا وموسيقى ومعنى:

((ومِن خِلال الرُّؤى المُكثَّفة في الأَغْراضِ الشِّعريَّة المُتنوِّعَة، يتَّضِح أنَّ باشراحيل إنسانٌ مُرهَفُ الحِسِّ إلى مدًى بَعيدٍ، وفي الوقتِ نفسِهِ شَديدُ الاعتدادِ بالنفسِ، مع ما يبدو من تبايُن بين الصِّفَتَيْن، وفي نظرته للأمور فإنَّه يغوص إلى الأعماقِ؛ ليقفَ بقُرَّائه عند بعضِ الجَوانِبِ الخَافِيَةِ في أَثْناءِ الأَمْرِ، فَلا يَكتَفِي بمَدلُولاتِ السَّرْدِ للحَدَثِ، ولا بِظَواهِرِ المَعانِي، وهذا التوجُّه عنده مُؤصَّلٌ أكثرَ ما يَكونُ في قَصائِدِ الرِّثاءِ. والشواهِدُ على ذلك كثيرةٌ، عرَضْتُ بَعضَها في فَصْلِ الرَّمزِيَّةِ في الرِّثاءِ) بقليلٍ من التَّفصِيلِ، وأيضًا في فَصْلِ (الرِّثَاء وإِسقَاطَات الأَلَم).))

لهـذا حين نعكسُ الرؤيـة ذاتهـا على نصِّ عـاطفتـه مشـــحونةً بالدمعة وإيقاع الكلمة الموزونة بحُزنِ الروح وثبات القلب على ما يُقدِّره لنا القَدَر نشـــعر تمامًا أن قصـــيدة (ورحلت أمي) هي من ضـــمن حدائق الحزن المَســـكون بأحلامِ الزمن البعيدِ الذي لم يَعُد حاضـــرًا، وعلى باشراحيل أن يجعل القصيدةَ بُوصَلَة لجهة الذهاب إليه وإلقاء قصـــيدةِ الرثاءِ في حضـــرتها، قُرب صـــورتها، قُرب قبرهـا، قُرب أشـــيـائهـا الحميميَّة التي تركتهـا في المنزل، ســكنته لغة دينيَّة تُطرِّزها أدعية الرجاء إلى الباري القدير ليَمُنَّ عليها بكامل رحمَتِه ورعايَتِه وجنائِنِه لأنها تستحقُّ هذا:

رَحِـيـمٌ أَنْـتَ فَـارْحَـمْـهَـا وَمَـنْ ذَا

سَـــيَـرْحَـمُ غَـيْـرَكَ اللَّهُ الْـعِـبَـادَا

وَأَغْسِـــلْـهَـا بِـمَـاءِ الـثَّـلْـجِ عِـطْـرًا

وَأَلْـبِسْـــهَـا الـرَّبِـيـعَ وَقَـدْ تَـهَـادَى

أَنِـلْـهَـا جَـنَّـةَ الْـفِـرْدَوْسِ هَـبْـهَـا

فَـــأَنْـــتَ اللَّهُ يُـــنْـــعِـــمُ إِنْ أَرَادَا

لَقَـدْ عَـاشَـــتْ تُحِبُّـكَ يَـا إِلَهِي

وَأَنْــتَ لِــمَــنْ تُــحِــبُّ نَــدَاكَ هَــادَا

إنها مرثية مُغنَّاة بعاطفة حزن الروح في أشـــد لحظات الحنين، لتســـجل وقائع بهجتها في البَوح دمعًا وتضـــرُّعًا ودعاءً بأن تلاقي من الله بقدر إيمانها وطِيبتها وثقافتها كأمٍّ أمسكت تواريخ البيت بحكمة ومسؤولية وحنان كبير.

وها هو سِفر الرثاء في عالَم الشاعر عبدالله باشراحيل يسجل في محطاته حديث الزمن الغائب بحضور الوجوه التي صنعته، لنقف عند الظلال المباركة، وندرس مؤثرات فقدان الأم بعد معاناة سنوات المرض، فكان نشيد معافاة الأم هو لسان حال الحب المسكون بأمومة سيدة خصَّها الشاعر بسَيْل هادرٍ من أدعية، كان الشِّعر لسان حالها من أجل أن تُشفَى، ومتى قَدَّر المُقدِّر قَدَره أتت دموعه بلَوْعةِ الابن المُحبِّ والشاعر المتمكِّن لتُسجِّل لنا تفاصيل هذا الرحيل، وليتشكَّل لنا مشهدٌ آخر في كل ما كتبه الشاعر الدكتور عبدالله باشراحيل من رثاء لرهطٍ جليلٍ وطيِّب من أهل البيت والأقارب والمشايخ والأصدقاء، ليسجل الرثاء هنا أيقونات وعي لقُدرة الشـعر على الوصـول إلى أعلى درجات طاقة البَوح والحنين، وتحويل الدمعة إلى كلمة

لتؤدي دورًا روحيًّا وإبداعيًّا وإنسانيًّا في نقل المشاعر والحواس التي تفجَّرت من أعماق الشاعر وأنزلت أمطار حزنها ينابيع حنين ورثاء، تؤرخ لحظات كل الحياة المُعاشة التي عاشها في كنف والدةٍ لم يزل إلى اليوم يسمع صلاتَها وتضرُّعاتها إلى السماء من أجل جميع أهل بيتها.

هذه القصيدة التي كتبها الشاعر عبدالله باشراحيل، بالرغم من بكائيتها المؤثِّرة فهي تمثِّل عهدًا جماليًّا من عهود الحزن التي تعوَّدها في حياته، وكانت خير دليل على وفاءٍ وإخلاص لوجوه عاش معها وافتقدها بلحظةٍ ما.

تلك اللحظة المشحونة بطاقة غريبة من أحاسيس الكلمات والصور وبلاغة الشعر وإيقاع أوزان تمازحت مع نبض قلب الشاعر لتكون القوافي قانعةً أن جمالية الحزن في تلك المَرثية أن كلماتها مكتوبة بحِبر دموع الشاعر التي نجدها هنا في قصيدة (هائية) جميلة ومؤلمة، وفيها صدى لنشيد ما في الروح من لوعة وحنين وهي قصيدة (في رثاء أمي) ص/263 من حيث يُبلِّغ الشاعرُ قارئَه مقدار التأثر وعُمق معنى الحزن في تلك الكونيَّة النائحة في يقظة الكلمات وهي تعمِّق في الحيرة صدَى

مواجع الرجل الشـاعر الذي يُدرك أن البهاء الروحي لديه يحتاج إلى سـفرٍ وإلى أم، حتى عندما تغادر عالمه المادي فسـتبقى خالدةً في عالمه الروحي، ومعه في كل ترحال كما سَفَر الغيوم بين القارات ومن دون جوازات سفر:

بِاللهِ هَلْ يَقْوَى الَّذِي افْتَقَدَ الْأُمُومَةْ

أَوْ يُبْصِرُ السَّارِي الَّذِي يَنْسَى نُجُومَهْ؟

لَوْ كَانَ غَيْرُ الْمَوْتِ يَا أُمِّي غَشَا

كِ لَكُنْتُ رَادِعَهُ وَإِنْ أَعْيَا خُصُومَهْ

لَكِنَّهُ قَدَرٌ عَلَى كُلِّ الْأُنَا

سِ وَلَمْ يَكُنْ شَخْصًا يُلَامُ لِكَي أَلُومَهْ

يَا وَجْهَ أَنْوَارِ الشُّمُوسِ عَلَى الْغُرُو

بِ مَضَى النَّهَارُ وَلَيْلُنَا أَرْخَى هُمُومَهْ

لِلهِ يَا ذَاتَ الْوَقَارِ رَحَلْتِ بَا

سِمَةً وَلِلْقُرْآنِ حَافِظَةً عُلُومَهْ

ومتى أعدنا قراءة القصيدة بهاجس المعاضدة والمشاركة مع حزن الشاعر برحيل والدته نشعر أن تلك الرثائية طاقتها اللحنية داخل الروح هائلة، وكأنها مكتوبة بقطرات مطر غيمة الحزن في سماء الشاعر..

هذا ضـــوء الشـــعر في كل أطياف حزنه يُؤرشِـــف فيه الشـاعر لغة قلبه، ويبعثها إلينا ببريد قصـائده مكاتيب حلم يشـــتاق إلى عودته فنتضـــامن معه متى سَـــكنَتْنا موســـيقى الشـــعر الـذي يتلوه لنـا الآن مَرثيـة يحـاول فيهـا عبـدالله باشـــراحيل أن يُثبت فيه موهبة الإلهام ويبعثه إلينا بأثير قلبه، وهو يعتقد كما أنا بأن الشعر هو الذات الموهبة التي إن شـع فيها الفرح صـارت قارة من النجوم، وإن شـع فيها الحزن فسـتكون أقمارًا للذكريات، وها هو الشـاعر الكبير باشراحيل في فَقْده لأمه ينير أقمار قلبها في قبرها والحنين يسكبه كلمات معبِّرة ويحمل معاني جميلةً جدًّا.

هـذا المعنى في وجـدانه هو صـــوت مكـانه وزمـانه، وسيبقى في وفائه لمن يرثهم ويرثونه الضوء الذي تبدأ مع أحلامه ليالي المبدعين ومع صـــباحاته أمنيات الملهمين حتى عندما تتوغل فينا موشـــحات حزن قلب الشـــاعر وصدى تراتيل أحزانه في فقدانه لأمه.

((يَا رَجْعَ حَنِينِ الذَّاتِ
يَا ظِلَّ مَلَاكٍ
يَا عِطْرَ الْوَرْدِ الْمَنْشُورِ
وَقَطْرَ الْغَيْمَاتِ
لَنْ تَبْرَحَ مِنْ قَلْبِي ذِكْرَاكِ

لَا أَنْسَاكِ
وَلَنْ أَنْسَاكِ))
قصيدة: (لن أنساك) الديوان ص/ 312.

هذا إصـــرار الشـــاعر حين يرينا مقدار ما فيه من حُب ووفاء وموهبة، يكتب شـجَنَه بصـدَى ما تعكسـه نبضـات قلبه، تلك الأناشـيد الناعمة التي تشـير إلى مكامن الحِس والإبداع والإصـــرار، بأن الزمن لن يمحوَ جمال الوجوه التي غابت بقَدَريتها المكتوبة.

كـل هواجس الحزن عنـد عبـدالله بـاشـــراحيـل هي مقطوعات لحنية لســـمفونية الإنســـان الذي يبتعد عنا في لحظةٍ ما، إنه يكتب ويشـــتاق ويوثق ويُبدع، ويجعل لغته واقعًا لفطرة الحنين الجالســـة في أعماق روحه وليُديم معها ثنائيَّة الوُد بين دمعته وملامح مَن يفقده من أحبابه وأعزته فيســـجل له نمطًا جميلًا للذكريات فيكون رثاؤه صـنيعة إلهام الموهبة والاشـتياق معًا. هذا الإلهام هو مَن طوَّر هذا الغرض الشـــعري في عالم عبدالله باشـــراحيل الإبداعي وجعله محط اهتمام لأكثر من دارس، ففيه رؤية فنية وبناءٌ حسّـــي عالٍ ومؤثّر، فهو كما باقي شـعره يفيض فيه الإحســـاس والوجدان، لكنه يتميَّز عن باقي عناوين

الشعر لديه، أن الحزن هنا صورة تقود إلى تعاطف روحي كبير بين القارئ والشاعر.

وهكذا نقرأ في رثائيات الرجل أطيافًا تسبيه في فضاء من خيال الدمعة إلى من تشتاق إليه، الشعر المؤثر، والشاعر الذي يحسن صياغة الكلمات ويحولها من سبائك الأفكار إلى إطارٍ مُذهَب يؤطِّر صور والدته عبر محطات حياته في كنَفِها، الأم الروح والمُصَلِّية كل فروض تعبُّدها، والمخلصة لبيتها، والحالمة برِفعة وكبرياء ونجاح أبنائها.

صور الرثاء في قصائد الأم التي أحسن فيها عبدالله باشراحيل في نظم عواطفه انفعالات جمالية لهاجس الشعر تمثل جزءًا من تراثيات منجز الروح وتعاملها مع العالم، وربما جانبها الإنساني والعاطفي يُظهر لنا أن الشعر الذي يتقن باشراحيل صياغة الأجود منه وفيه إنما هو يُحوِّل حزن الشاعر إلى صور جمالية حزينة، ولكنها بعذوبة حنينها ولحنها تصبح مصدر متعة روحية وتأملية للقارئ وهو يرى ويسمع صدى نشيد الاشتياق يلفُّ أكوان القصيدة التي يرثي بها عبدالله باشراحيل والدته.

هذه الأكوان إن دارت، وإن تلوَّنت، وإن ركبت من محطات الحياة إلى ما قُدِّر وتَقَدَّر فإن التعبير عنها حتى لو

كان حزنًا، فهو جزء من وفاء كبير يستشعر به قلبٌ كبيرٌ (عبدالله باشراحيل) وينقله إلينا في منظومات روحية-أدبية، تلامس وتر الإبداع فتطلق أناشيد مدائح حناجرها لوجوه مثَّلت سُقيا مطر لسنابل الخير التي ملكنا في حقولها جمال العيش والحياة.

كانت الأم بالنسبة لشاعر قرابين الروح تمثل جمعًا طيِّبًا من الأزمنة المغادرة وذكرياتها، وحين يكتب مرثيَّته فهو يستعين بلغة بلاغية روحيَّة عميقة؛ لأنه يشعر أن قلم الكتابة هو نبض قلبه وحِبرها، هو دموع ذلك الرحيل الذي يؤسطره هنا حدائق لعطر لا يغيب من البيت وأوراق كل كُتبه، ولا يغيب عن أجفان صورة الأب المعلَّقة على جدران البيت والصالون الأدبي، وأيضًا جميع أهل البيت له في الاشتياق لعطر الأم.

كانت مراثي قرابين الوداع ومراثي الكتب الأخرى في الرصيد الإبداعي للشاعر عبدالله باشراحيل متعددة، قامات مَلَكية، وأميرية، ووطنية، قريبون برابطة الدم والقرابة، وأصدقاء، وزملاء عمل، ومشايخ عِلم ودين وفكر. ومعهم كان خيارنا أن تكون مراثي الأم هي مادة الرؤية الجمالية في هاجس الرثاء لدى الشاعر عند هذا الديوان، وأظن أنني ربما نجحت في الاقتراب من المنطقة الشفافة

في قلب الشاعر وتأثرت بها من خلال إعادتي لقراءة تلك المَرثيات الحزينة والجميلة التي كتبها لسيدة المنزل (الوالدة)؛ حيث المشاعر التي فاضت أنهُرُها ببديع الكلمات وخواطر الروح ونشوى الحنين لفراق يعرف الشاعر تمامًا أنه القَدَر المُقدَّر لنا جميعًا، لكن الوفاء والولاء والشكر ينبغي أن يكون رسالة وفاء إلى تلك المرأة الطيبة والمؤمنة، لهذا فهي تستحق تمامًا أن يكون الحمد في حقها واحدة من أرق قصائد الحنين إليها، لتظهر كمقطوعة موسيقية حزينة ولكنها مشبعة بالإيمان وأفكار الحياة وذكرى ملامحها الطيبة:

((فِي الْخَوْفِ كَمْ إِنّي أُحِسُّكَ أَنْتَ أَمْنِي
فِي الْفَقْرِ أَسْتَجْدِيكَ تُغْنِينِي فَتُغْنِي
فِي كُلِّ هَمٍّ أَنْتَ مَنْ فَرَّجْتَ عَنّي
فِي السُّقْمِ تَشْفِينِي تُعَافِينِي وَتُهْنِي
.....
فِي حَمْدِكَ الْحَمْدُ الْكَثِيرُ قِطَارُ مُزْنِي
فِي جُودِ لُطْفِكَ كَمْ لَطَفْتَ وَكَمْ تَصُنّي
فِي الْعُسْرِ مِنْكَ الْيُسْرُ يُخْلِفُ سُوءَ ظَنّي))

قصيدة: (في حمدك الحمد) الديوان/ ص 383.

رابعا- (الرؤية التي يراها عبدالله باشـــراحيل في قرابين الوداع)

في مُجمل ما درسـناه عن الشـاعر، وقد أبحرت الرؤى في عالمٍ شـــعريٍّ مُميَّز لإنتاج ما يبدعهُ الشـــاعر عبدالله باشــراحيل عبر آخر دواوينه (قرابين الوداع)، وحتى نوجز ما قرأناه وشـــعرنا برؤيته الجمالية، منحتنا قصـــائد كتاب الشـعر هذا خواطر بلونٍ ومعنى ورؤيا لتحســس الهاجس التي اشـــتغل عليه الشـــاعر في رؤاه ونبوءاته وذكرياته ومواقفه ومشاهداته ومراثيه، وعليه فإن ختام فصول كتابنا (الجمـالي) في النظر إلى الســـحري والخفي في عـالم (باشـراحيل- الأدبي) يقول على أننا نقرأ ونشـعر بما تؤثره الكلمـات فينـا (المبنى، والبلاغـة، والرؤيـة، والقصـــد، والإحساس).

وتلك هي رؤية الشـــاعر للعالَم مســـتنارة بالإشـــارة ومسـتندة إلى أزل من الأخيلة واللحظات التي يختلي فيها مع نفســـه وتهبط عند أجفـانه ملهمـات الكتابـة بـالنمط والمســـار والجمال، وهو ما عرفه عنه العالم، ومنه العالم العربي، ثم العالمي عبر ما تُرجم له وســـاهم به. ولهذا سأتخيَّل أني عند نهايات الديوان، وأنَّ عليَّ أن أعيش متعة

القراءة مع الشـــاعر وأقف عند تلك الرؤية، أتخيل فيها ما يُمكن أن يحلَّ بنا لو أن الأرض لم تَحوِ الأنبياء والفلاسفة والقديســين والشــعراء، ســنكون يبابًا، يشــتبك فينا هوس المنجنيق وفوهات المدافع فيما لا يدخل الشـــعر موائد الصفاء ولحظة العطر، أو انطلاق ما في الذات من الشجن واللوعة إلى رمش يغازل بحبٍ مع حزمة ضـــوء الأزرق تحت أجفان امرأة جميلة، ومودَّة الشـــعر لا تُملُّ حتى بإنجاب أطنان القصـــائد على مر التاريخ ما دام القول الكريم يقول: «إِنَّ مِنَ الْبَيَانِ لَسِحْرًا».

حِســيًّا... فإن هاجس باشــراحيل هنا وفي كل أعماله، هاجســـه هو الكلمة، وعلى أديم الكلمة المُشـــعَّة كيَرَاع تتحرَّك رغبةُ القول في إنســـانيتنا، ونحاول أن نجد مدركًا لما نقوله، فنلوذ بالصفاء الذي يمتلكه الآخر؛ لتُخلَق عندنا وعند الشــاعر عبدالله باشــراحيل نشــوى فهم العالم القائم على تجريد الذات من كل مُحفِّزات وأشـــكال دُنيويَّتها، إنها التعالي والذهاب إلى عالمٍ ذَرَّةُ ترابٍ فيه تُجبرك على مسح العوالق ولا صدى كلمة مشوشة تحتاج إلى تفسير، إنها روح مدورة، وتتحرك في محيط ســـديم من التأمل وقراءة الأفكار الأخرى. وما هي الأفكار الأخرى: إنها (خليط من لذَّة نصـــنعها بإيعاز من غيب لا نراه، ولكننا

نحسه يتحرك بين أصابعنا وفي خفَقَان قلوبنا، وفي نومنا نراه مثل فلاح البستان قادمًا إلينا بسَلَّة الثمر).

لهذا فإن الشعر عند هذا الشاعر الحالِم بأداءٍ ساحرٍ لرغبة روحه قائمة على لحظة التأمل بقُدرة حِسِّه ولا أثر للجسد أو القوة، ما تمنحه لنا طاقته الروحية هو ما تمنحه السماء البعيدة لمن يختار هذا المنهج، من نبع كهذا تأتي الأفكار وتهيمن على وجودنا، وهذا في حكم القَدَر والمُقَدَّر يحتاج إلى تمرين صعب؛ ذلك أنك حين تودُّ تنشئة الذائقة على سياحة الذهن ورقته عليك أن تنزع جسدًا وتلبس آخر، وهو ما تسعى إليه الروح المبدعة تمامًا، وما يفكر به الراقد تحت ظل نخلة المُنى ينتظر تدفُّق موسيقى الزمن الذي أمامه، وفي رجاء أسطوري يتمنَّي أن تسكت كل البلابل ويبقي الذي يتمناه وحده مغردًا في سياحة العاطفة وصناعة الكلمة وتأويل الحلم إلى افتراض وجوده هائمًا وسابحًا في ذاكرة الشعر التي نلبسها بياض الثوب وبياض النية وبياض التصور..

يقول غاستون باشلار: إن الأمكنة تخلق سِحر القصيدة بحِسِّيتها وربما مكان سقوط الدمعة أجمل مثالٍ لذلك.

يمضي هاجس باشلار إلى الدمعة التي قارنتُها بواحدة من رثاءات الشاعر عن رحيل والدته، ومعها يمضي

هاجسي إلى الشعر. الشعر الذي يُحيلنا إلى متعة الروح قبل متعة فهم كلام المغزى. إنه معنيٌّ أَن تكتشف، ومعنيٌّ أن تُعيد بناء بيت الذاكرة، ومعنيٌّ أن تقود خُطاك صوبَ الأفق الأوسع من أجنحة ضوء العتمة التي تريد بها أن تصنعَ من تخيل الإغماض ما تودُّ أن تمتلكه (الوطن، الوردة، المرأة، لحظة صفاء البال. وسياحة الميتافيزيقا). فهو أي (الشعر) رؤيا لما قد نراه في أطياف الكلام فقط، وعدا ذلك فإنه يبثُّ رؤيته بالشجن والإدراك والوقيعة ليُلازمنا ظلًّا يبدأ في لحظة طفولتنا المستعادة وينتهي بنا إلى إغماضة الأبد الأخيرة.

وسط هذه الرؤى يصبح إنتاج النص (الذي يكتبه باشراحيل) من المكان فيه هو الممكن الأول في جعل الخيال الطافح كائنًا على ورقة، يمتلك المشاعر والمشاهدة والبَوح والمعنَى، وبتلك الأشياء يبدأ الشاعر صنع كائناته وتسويقها لمن يدرك أنهم معه في الفهم وفك مشفرة المشاعر والتضامن. فمن دون آخر، لا يمكننا أن نصنع إحساسَنا بجمالٍ. دون أمكنة نرتديها قمصانًا لصباحات نستقبلها بقراءة مُفترَضة ومتخيَّلة لا نقدر أن نكمل يومنا إلى آخر نبدأ منه من جديد.

الأمكنة لحظة أرضية يدركها الشعر حين تفترض لحظة ما، أن عليك أن تبتعد عن بساطة وجودك، ليأتي التخيُّل منقادًا بما تحسُّ أو ترى، وكلها بإسقاطاتها المتعددة تخلق هاجس الكلام وفكرته (غرفة، موسيقى، حرب، منفَى، حب خاسر، طائر في قفص، بَوح طافح بكل شيء، رؤيا عاشقة،، نجوى، وأناشيد غزل). كلها ممكنات وأخيلة تسكن في رؤوس الشعراء وتستقرُّ في مربع ضوئي في مرأى المخيلة لتطلق بعد ذلك فراشات الضوء إلى حديقة الورقة أو شاشة الحاسوب، ليكون جماعًا، وهذا الجماع يُنتِج، وليبدأ مشوار أزمنته بين الذكورة والأنوثة، والغريب أنه يبدأ بحجم دمعة لينتهي بحجم جبال الهملايا، وربما أكثر، إذا قُدِّر للقصيدة أن تذهب من مكانها إلى درب التبانة. إذن المكان خطوة النص إلى الطريق الذي يريد أن يسلكه، والمكان الذي يتمنَّى أن ينتهي إليه، كما تنتهي خطوة الجندي بعد مفارقته صخب الحرب.

في العالم الشعري عند الشاعر الدكتور عبدالله باشراحيل فإن هذه الخطوة التي تُقرأ بمستويات لا تُحصَى من الفهم يعدُّها أرسطو خيالاتٍ متعددة الاتجاهات، ولكنه في النهاية يعتبرها هبةً من رَبَّات السماء، ويعتقدها

آرثر رامبو ملائكةً يمنحوننا الوحي؛ لأننا نتأملهم من خلال نافذة البحر غير عابئين بفوضى البحارة. فيما يشكل مكان استقرار الشعر وانتقاله هاجسًا نفسيًّا قلقًا ومحسودًا كما عند السيَّاب حين يستقرُّ مكان الشعر فيه بكتاب ليحسده بعد ذلك كقوله:

يَا لَيْتَنِي أَصْبَحْتُ دِيوَانِي

لِأَفِرَّ مِنْ صَدْرٍ إِلَى ثَانِ

قَدْ بِتُّ مِن حَسَدٍ أَقُولُ لَهُ

يَا لَيْتَ مَنْ تَهْوَاكَ تَهْوَانِي

إذن انتهى مكان الشعر ليكون صدر امرأة.. فأين تنتهي أمكنة الشعر عند أولئك الذين نفترضهم من خلال نتاج ما يحلمون به ويمطرونه علينا حِبرًا من دموع القصيدة وموسيقاها. حتما نُجددها في تعدُّد الأغراض الحياتية والإنسانية والكونية والعاطفية كما هي في عناوين قصائد قرابين الوداع.

نقرأ رؤى الشعر من خلال أمكنة تتحوَّل عندها بتحوُّل ميتافيزيقا المهجر والنأي والتفكير بصناعة عالَم جديد، عالَم ليس فيه سوى عطر ما نريد أن نمنحه للآخرين وأن نُخلِّص اليائسين من مرارة أنهم لم يسمعوا الشعر بقدر ما

يســـمعون الفقر والحرمان والعوق الذي يصـــنعه الحظ السَّـيِّئ للشـعوب المُبتلاة، بالزنوجة وأمراض الصـحاري والغابات الاستوائية وإمبريالية مايكروسوفت.

هذه مقدمة مختصـرة ومبتسـرة لهاجس مشـروع كتابة كتاب نقدي- جمالي عن شـاعر سـعودي أتت به مشـاعر من موســيقى اللحظة التي تســكننا في غفلة عن الذي يحدث في عالم تُؤدلِجُه أمزجة الدبابات في الأراضـــي المحتلة، والطفرات الشـــعرية المتعالية، والرموز الورقية، وبعد الذي يجلبهم حظ الشهرة في غباء الموهبة...

أضـع الكتابة الشـعرية عند مسـتوى وعي ما يَكمُن في العمق الـذي أمتلكه.. أفكر في لحظة الاعتقـاد أن الوعي الحِسي هو وعي تصنعه نبوءة لا تقدرها لحظة واعية، إنما الصـــدفة هي مَن تضـــعنا عند الكلمة الأولى من النص.. لهذا ســـأجانب الوعي وأتركه يخوض نقاشـــات المقهى وأســعار الخضــراوات والصــوابين والكتب، وأدخل في قيلولة انتظار القصيدة الساحرة.. تلك التي تمنحني هيجان الوعي وانفجـار غُـدة العطر في دمـاغي، ومن ثَم تُحوِّلني إلى رُخٍّ هائل يحمل سندباد الكلمة وشهرزاد الحكاية إلى مُدنٍ أسـاطيرُها بهجة النسـاء، وأرغفة خبز الفقراء، وحزن الفلاسفة.

لهذا فأنت تقرأ في شعرية عبدالله باشراحيل فتشعر أنه يكتب قصيدةً في الفعل الجمالي والفلسفي كما قصيدة سقراط، والبحتري، وأخمانوتوفا، والبيَّاتي، وكافافيس الذي كنت دومًا أضع صمتي في صراخه الداخلي وبهجته السرية؛ فأكتشف أن الشعر مذاق لطعم يتراوح بين كل درجات التذوق.

إنه مثل الشاعر الذي تُميِّزه ثقافته ورهافة الحس وعُمق ما يقرأه الوجدان؛ لأن القصيدة عند عدة مستويات من باطنه السحري، ويعيد فيها بنا الغموض الذي يعتريه من أثر شهوات بعيدة، لهذا يأتي نصُّه بهيمنة انفعالية ولكن يصاحبها سر غامض من لذة موسيقية هادئة لتُنبئك أن الشاعر يكتب ليستحضر وليس ليقول عنه الآخرون إنه كتب قصيدة؛ لأنه في بهجة ليله وقيلولته وسِرّه العميق لم يفكر يومًا ما أن ينتبه له العالم، كان يكتب لأنه يعتقد أن حواسه وحاجته مشدودة لزمن أبعد حتى من ريشة المؤرخ وسيف المحارب الهليني، كان يُدوِّن في قصائده سيرةً لزمن خفي وبهجة غامضة لشيء هو قد لا يدرك خفاياه إلا من خلال ما يريد أن يستحضره، فيكتب نصوصه القصيرة ولكنها تضجُّ بانفعالاتٍ تعجز عن استحضارها مئات كتب الشعر...

كنت في الرؤيا الشعرية أضع عبدالله باشراحيل في مُخيِّلتي عندما أريد أن أقود شموعي إلى ليلة فِتنة النص، وكنت أحيط عرشي الذي أفكر من خلاله بهَالاتٍ لا تُحصى من الأشكال المفترضة؛ لهذا تأتي ملائكة الإلهام تحمل مع ابتساماتها الطاقة التي تدفعني إلى التجاسُر لأقرأها بعُمق، ومن ثَم أنسج على مساحات أجسادها المرايا سطور القصيدة. فتكون قصائد هذا الشاعر الحقيقي (الدكتور عبدالله باشراحيل) هي العبور من ضفة الحلم والقرابين إلى ضفة المجد والبساتين.

مدينة دوسلدورف
الألمانية
في العاشر من يوليو
2024

نبذة عن الشاعر الدكتور عبدالله باشراحيل

رجل أعمال ومستشار قانوني وكاتب وشاعر سعودي، يُعد من أبرز شعراء المملكة في العصر الحديث، وهو رئيس منتدى الشيخ محمد صالح باشراحيل الثقافي، الذي أسسه والده في مكة ليكون -بعد سنوات من الإيمان بأهمية المعرفة والثقافة- أحد أشهر المنتديات السعودية الثقافية، ويدير عبد الله باشراحيل إلى جانب ذلك عدد من المؤسسات والشركات في المملكة العربية السعودية وفي بعض دول العالم، وهو مؤسس جائزة باشراحيل للإبداع الثقافي، وكاتب غزير الإنتاج الشعري والثقافي، إذ ألّف نحو 25 ديوانًا شعريًا، و8 مؤلفات نثرية أخرى في المعارف الفكرية والثقافية والفلسفية والاجتماعية.

ولد في مكة عام 1951، وفيها تلقى مراحل تعليمه الأولى، ثم انتقل إلى القاهرة ليحوز على كل من البكالوريوس في كلية الحقوق، والماجستير في الدراسات الدولية، ومن القاهرة إلى الفلبين انتقل

بطموحه العلمي ليحصـــل على الـدكتوراه من جـامعـة الشـرق في الفلسـفة التعليمية، وسـاهم مع والده وإخوته في العديد من المشاريع الوطنية والتجارية.

الدواوين الشعرية:

معذبتي.

الهوى قدري.

النبع الظامئ.

الخوف.

قناديل الريح.

سيوف الصحراء.

أقمار مكة.

أبجدية قلب.

قلائد الشمس.

بماذا تتنبأ يا صديقي؟

المرايا.

أنفاس الورق.

الجراح تتجه شرقًا.

وحشة الروح.

البرق الحجازي.

عمر بلا زمن.

صباح.
بيت القصيد.
المصابيح.
مدن الغفلة.
عصر الشعوب.
شموس مظلمة.
لمع وومض.
شذرات.
قرابين الوداع.

كتب النثر

- صدى الصمت (الصدى الأول، الصدى الثاني).
- توقيعات (ترجم إلى عدة لغات).
- أحاديث الأحداث.
- خريف الفكر.
- الشعر الشعبي.
- ديوان كهوف الوهم.
- ديوان بوح النسائم.

صدى العصر (سياحة فكرية).
المشاركات الشعرية

• شـــارك في مهرجانات الجنادرية، وشـــارك بإحياء أمســيات شــعرية ضــمن 84 شــاعر عالمي في مهرجان الشعر العالمي بميديلين بكولومبيا، وشارك أيضا بأمسيات مهرجان المتنبي بسويسرا في عدة مدن.

• شارك في مهرجان جرش، وشارك في عدة أمسيات في جمهورية مصر العربية في جامعة عين شمس، جامعة المنيا، المركز الثقافي بالإسكندرية، ومنتدى الدكتور عبد الولي الشميري.

• شـــارك بأمســـيات نادي أبها الأدبي، ونادي مكة الأدبي، ونادي الباحة الأدبي، ونادي الطائف الأدبي، وشارك بأمسية في جامعة أم القرى.

• شـــارك بأمســـية شـــعرية في جمعية الثقافة والفنون بجدة.

• شارك بأمسية شعرية بمنتدى الشارقة بالإمارات.

نال أوسمة وتكريمات عديدة من ملوك ورؤساء دول وجامعات عربية ومنظمات ثقافية أدبية عربية وعالمية عرفانا لجهده الأدبي المتميز والتنويري في إبراز دور ثقافة بلاده أمام الثقافات العالمية الأخرى.

المؤلف في سطور

الكاتب/ نعيم عبد مهلهل

مواليد العراق

- القائمة الطويلة لجائزة كتارا للرواية عن روايته صفحة الحلاج في الفيس بوك/ 2023.

- جائزة الرواية في تونس - عن روايته جنود حروب كوكب الشرق/ 2021.

- جائزة الطيب صالح العالمية للكتابة الأدبية/ الجائزة الأولى/ فرع الرواية/ أوروك هايكو الغرام/ عام 2021.

- القائمة الطويلة لجائزة الشيخ زايد للكتاب/ فرع الآداب/ عن روايته توراة المتنبي/ 2020.

- جائزة محمود جنداري للقصة القصيرة/ الجائزة الأولى/ نينوى 2018.

- جائزة نعمان الساعاتي لأدب الرحلات 2013 عن كتابه رحلة الفتى جلجامش إلى طنجة.

- جائزة محمد الحمراني للرواية 2011. عن روايته حريم مدن السلطان.

- حائز على جائزة القصة القصيرة في مسابقة اتحاد كتاب العرب/ دمشق عن قصته (تفاحة دلمون) عام 2007.

- حاز على الجائزة الثانية في مجال الرواية عن روايته (جنكيز خان) في مسابقة مجلة دبي الإبداعية الكبرى/ دار الصدى للصحافة والأعلام دبي 2007.

- حائز على جائزة العنقاء الذهبية في المجال القصصي عام 2007 التي يقدمها بيت القصة.

- حائز على جائزة الدولة في الرواية 2003.

- حائز على الجائزة الأولى في القصة بمسابقة الاتحاد العام للأدباء والكتاب في العراق عن قصة (كاهنة ديوان الوزارة) 1995.

- حائز على الجائزة الأولى في القصة لمسابقة اتحاد أدباء وكتاب ذي قار عام 1994 عن قصته (دموع حمزاتوف).

- حائز على جائزة القصة/ المرتبة الأولى في مسابقة مجلة المرأة عام 1990 عن قصة (فتاة الاستعلامات).

- يكتب القصـــة والنقد الأدبي والشـــعر والمقالة السـياسـية ومهتم بالديانات العراقية القديمة والميثولوجيا السومرية وبيئة مناطق الأهوار.

يكتب عمودا يوميا في عدة صحف عراقية .

مدير تحرير مجلة الأهوار الصـادرة عن وزارة الموارد المائية.

يعيش في مدينة فوبرتال الألمانية.

المحتويات

الفصل الأول 6

قرابين الوداع (أنموذج الحياة ومحطاتها في عالم عبدالله باشراحيل) 6

الفصل الثاني 24

الشاعرُ يقدِّم نفسه 24

الفصل الثالث 42

الهاجِس الإنساني هو عولمة الشعر 42

الفصل الرابع 60

الشاعر عبدالله باشراحيل ضوء العالمية في عطر ديوانه الجديد 60

الفصل الخامس 75

قرابين الوداع وقرابين الحب رسالة الشاعر في أزليته 75

الفصل السادس 95

دلالة الحكمة بين كتابي "قرابين الوداع"، و"صدى العصر" 95

الفصل السابع 115

عاطفة الروح ببراءة الغَزَل العفيف (ديوان قرابين الروح حديقتها) 115

الفصل الثامن 135

قرابينُ الودَاع استعادةٌ أخرَى لوجه الأب 135

الفصل التاسع 145
الشعر في إضاءاته الروحية والجمالية 145
ديوان قرابين الوداع - اللغة والرؤية والإيمان والفلسفة والرثاء 145
نبذة عن الشاعر الدكتور عبدالله باشراحيل 193
المؤلف في سطور 197
المحتويات 201